



حواديت «الآخر»

رواية

حسام فخر



حواديت «الآخر»

حواديت «الأخر»

رواية

حسام فخر

الطبعة الأولى، ٢٠٠٨



حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر

٩٧ كورنيش النيل، روض الفرج، القاهرة

تليفون: ٢٤٥٨٠٣٦٠، فاكس: ٢٤٥٨٠٩٥٥

WWW.elainpublishing.com

الهيئة الاستشارية للدار:

أ.د. أحمد شوقي

أ.د. أحمد مستجير

أ.د. جلال أمين

شوقي جلال

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام:

د. فاطمة البودي

الغلاف: أحمد اللباد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٠٨/٩٦٦٥

I.S.B.N 978 - 977 - 6231 - 49- 8

حواديت «الآخر» رواية

حسام فخر

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

فخر، حسام.

حواديت "الآخر" / حسام فخر ط ١

القاهرة : دار العين للنشر، ٢٠٠٨.

١٢٠ ص ب سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٦٢٣١ ٤٩٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

الجزء الأول

أف منه ومن سيل كلامه، مرت أيام بلياليها وهو جاثم على كتفي يتكلم ويتكلم بلا انتهاء. دوّخني وقلب رأسي. وكلما حاولت أن أضع القلم لأخذ قدرًا أستحقه من الراحة، وخزني واستحثني على الاستمرار كأني حمار. ولا أنسى لحظة أومأت برأسي لأخذ تعسيلة قصيرة، وكز ولكز وشخط ونظر ففتحت عينيّ المجهديتين. أشار بإصبعه إلى الإبريق فتمايل متجهًا إلى الحوض؛ حيث فتح الحنفية وملاً نفسه ماءً وعاد إلى الموقد بخطى ثقيلة بطيئة، وخرجت ملعقة صغيرة تراقص برشاقة في سيرها السريع، وغاصت برأسها في البن، ثم حملته وسكبت حملها في الإبريق. اشتعلت النار لما أرسل سيجارته تطير لتدير مفتاح الغاز ثم تطعمه لهبًا من قمته. قبل أن تنتهي السيجارة من مهمتها سمعت الفناجين تتدافع وتتصايح متزاحمة عند باب الدولاب لتخرج وتصف نفسها على الصينية مع السكر والملعقة. قفز الإبريق وصب من بوزه قهوة بنية دسمة الرائحة. تهادت الصينية والسيجارة تقودها. والفنجان صعد وتحرك من اليمين إلى اليسار ثم حطّ على شفتيّ وأرغم القهوة على النزول في حلقي حتى أفقت، فضربني الآخر على قفائي وقال: الآن اكتب.

والحكاية، ببساطة، أنني قابلته، حدثني وحدثته، وشاربني وشاربته، ولمّا تمكن منّي شيطان الخمر والكلمات، قفز على كتفي وأطبق بساقين من حديد على جنبيّ وأفشى لي السر:

- لقد عشت مغامرات ومخاطرات تشيب لهولها الولدان وذلك في مدينة النحاس والله وحده يعلم كيف خرجت منها حيًا، رأيت مالا عين رأت ولا أذن سمعت، وأريد الآن أن أكتب ما رأيت،

غير أني تعبان منهك ووقع اختياري عليك، سأركب كتفيك
وأستعير مخك لثمانية أيام وسبع ليالٍ، سأخبرك بما جرى لي وأنت
ستكتبه..

ويا سادة يا كرام مرت أيام بلياليها، وهو راكب كتفي يملّي عليّ
ويأمرني بالكتابة، ولا يتيح لي راحة. وهذا -يا سادتي- ما حكاه لي
الآخر وهذه حواديته أنقلها إليكم على مسؤوليته الكاملة وحده، فأنا لا
ذهبت إلى مدينة النحاس، ولا رأيت ولا سمعت، وما أنا إلا رسول، وما
على الرسول إلا البلاغ..

حدوتة الاتكال على علام الغيوب

«ألم تكن أرض الله واسعةً فتهاجروا فيها».. قالها وعدل نفسه في جلسته على مقعده غير المريح (أكتافي ليس فيها درهم لحم)، رشف شيئاً كان يشربه ثم قال:

- البدء ضروري أن يكون في البداية، ورحلتي إلى مدينة النحاس لا تفهم إلا بمعرفة خروجي من مدينتي، وهذا الخروج بدوره لا يفهم إلا إذا عرف السامع عن حياتي مع أسرتي وأهل البلد، وهكذا ترى أننا لنفهم شيئاً وقع في العامين الماضيين؛ علينا أن نعود بالتاريخ إلى نقطة البدء؛ وهذا من مصاعب حياة البشر..

ولدت لأبوين من أواسط الناس وكنت الابن الثالث، كان أخي الأكبر قوياً عفيفاً، والأوسط نابهاً علامة، أما أنا فلم تكن لي صفة مميزة.. كنت طفلاً ككل الأطفال، آه إنني أسمعك تقول لنفسك: إنني أحكي لك قصة خرافية كقصص ألف ليلة، وبدأنا بالإخوة الثلاثة، الكبيرين ممتازين، والصغير أبله أو عبيط، لكنه في النهاية -ومن دون سبب- يفوز بابنة السلطان وقصر السلطان وسوط الحاكم وخزانة الدولة، لكن لا... اسمح لي - يا صديقي- أن أقول لك إنك مخطئ فهذه الحدوتة حقيقية

تماماً، فضلاً عن أنها تخلو من الفوز، ليس فيها إلا خسارة في إثر خسارة كدورات عجل السيارة، فأرجو ألا تقاطعني مرة أخرى، ولا تنس أن مجرد تفكيرك قطع لتسلسل أفكارى وتداعى ذكرياتي؛ إذ إنني أستعمل مخك، والمقاطعة لها ضرران، الأول ذكرته لك، والثاني هو أنني كما ترى كثير الكلام، وإذا قوطعت أترسل إلى مالا نهاية، أعود فأقول إنني نشأت طفلاً ككل الأطفال، ثم أصبحت شاباً عادياً لا فرق بيني وبين غيري إلا في حبي للكلام، فكنت أقضي يومي أتكلم أقول شيئاً أو لا أقول، بمعنى وبغير معنى، وكانت أسعد لحظات حياتي أن أجد للمقام مقالاً يناسبه، وعلى الرغم من مهارتي في اللعب بالكلمات -التي تفسر العمل الذي أعطاه لي ملك مدينة النحاس ولكن هذه قصة أخرى- على الرغم من هذه المهارة، فإنني نشأت محروماً من صفات أخوي النادرة، وبالتالى حرمت من قدر من حب والدي؛ لأنني كما قلت لك كنت عادياً لا فائدة مني ولا عائدة إلا الكلام في الفارغ والميلان...

ولك، إذن، أن تتخيل ما حدث لوالدي حين عبر أخى الأكبر البحر مع الجيش ليحارب في الصحراء، وكانت أعين شبكات الرادار ضعيفة، فظننت القادم سرب جراد أو عصافير؛ فلم تزار بالإنذار المخيف الذي يفوق النائم، وضربت الطائرات الأرض بالقنابل والرصاصات، وعضت بأسنانها أسفلت الشوارع وأسمنت الحيطان، وطبعاً لم يعد أخى وضاع نصف ما كان لأبوي من أمل في الدنيا..

بعد ذلك وقع حدث من أغرب أحداث العالم، انقلب نظام المدينة تماماً، أصبح الناس ينامون بالنهار ويصحون بالليل ويسمون الشمس قمراً والقمر شمساً، وكل ما كان على اليمين أصبح على اليسار، وأصبح

الجنه بقرش والبيضة بعشرة واختلطت كل الأمور لم يعد أحد يعرف شيئاً، والله لقد رأيتها بعيني رأسي منقوشة بقلم خطاط على مؤخرة التاكسي السوداء: «ما حذر فاهم حاجة»، ولم تعد هناك قواعد لأي شيء وربما كان هذا هو السبب في تمسكي الشديد بالقواعد، والذي سيفسر لك ما حدث مع الفئران الحسيسة، وطبعاً أصيب أخي الأوسط بحالة اختلاط وبلبله وتشويش وقرر أن يعبر البحر إلى مكان آخر فيه النقد والبترو، عبثاً حاول أبي وأمي إثناؤه عن عزمه لكنه صمم وركب رأسه، وقال: الخروج من هذا المكان هو هدي في فقد كدت أختنق وأسعار الشقق تعرفونها وليست هنا نقود كافية، ليت كان يعلم أن أبي بقلب الأم الطاهر قد حدثت ما سيحدث وأنه بعد عبوره البحر بفترة ستأتي إلينا ورقة تقول: إنه قد شرب النار حرّاً وشمساً ومهانةً فاحترق...

بهذا النبأ الحزين ضاع كل الأمل من العجوزين التعسين، ولست بحاجة إلى أن أخبرك إن عقل الإنسان يدافع عن الإنسان بالعقل وبالجنون، فما إن تتابع عليك خيبات الأمل والأحزان مؤلمة ومتلاحقة؛ حتى يقرر عقلك أن الإدراك قد أصبح مهمة شاقة وعبئاً باهظ التكلفة فيأخذك إلى عالم الجنون؛ حيث تنقلب الأشياء ويصبح الكبار صغاراً والأموات أحياءً وكل شيء يصبح ضده، وهذا أحد الأسباب التي دعنتي للاتكال على علام الغيوب، والخروج لبلاده وأرضه الواسعة فقد أصبحت أعيش حالة الاختلاط داخل البيت وخارجه، كنت أتمزق ألماً وأنا أرى والديّ يذبلان ويتحولان إلى ورقتي شجر ذاويتين، والحب - كالعقل - يعبر عن نفسه بالعقل وبالجنون.. بالقبلة والسكين، فقررت من فرط حبي لهما أن أقتلها وأريحهما من الألم...

كان الممر مضاءً بلمبة سهارى خافتة، دفعت الباب فارتسم مستطيل من الضوء على السرير، تقدمت بالسكين في يدي، سمعت أبي يحدث الطيور في نومه، تذكرت آلاف الأشياء الصغيرة التي فعلناها معاً، بُعثنا في عقلي شابين هائنين بكل الصحة والأمل، رميت السكين في المطبخ، ومن دون أن أنظر خلفي فتحت باب البيت وخرجت وتركتهما ورائي، و- مستعيناً بالنسيان - وضعت قدمي على أول الطريق الذي قادني إلى مدينة النحاس.

حدوتة الأرض والأشجار

فرد ساقيه ورأيت أصابع قدميه تتحرك وتتلوى. اندهشت لنحولها وصغر حجمها، وتساءلت: كيف يمكن لإنسان أن يسير بمثل هذه الأقدام؟ قال زاعقًا:

- أرجوك لا تفكر في الأقدام الآن؛ فنحن مقدمان على جزء صعب للغاية، ويحتاج إلى أكبر قدر من التركيز وتفكيرك في قدمي يشوشني ويجعلني عاجزًا؛ ففتح عينيك وأذنيك، وأمسك بالقلم حتى أروي لك ما حدث مع أشجار القلب، ولكن قبل أن نبدا ينبغي ويستحسن أن أعرفك بأصل الحكاية

أساس الموضوع - يا صديقي العزيز - هو القدر المحتوم بأن تكون الحياة خروجًا مستمرًا، فمثلما نبدأها بالخروج من رحم الأم ننهيها بالخروج من الدنيا، وبين هذا الخروج وذاك لانني نخرج من مكان إلى آخر، وليس في هذا -بحد ذاته- مشكلة، المشكلة -كما سترى- تتصل بطبيعتنا نحن بني آدم، فعندما تلتقي بإنسان تتحول من فورك إلى أرض وشجرة، أرض يضرب فيها الآخر بجذوره، وشجرة تضرب بجذورها في أرض الآخر؛ وبهذا المعنى تتفاوت أحجام البشر من دوحة باسقة

تصلب العود إلى نبتة صغيرة تطير مع أول هبة ريح، وليست في هذا أيضًا مشكلة، المشكلة هي الخروج، عندما يخرج الآخرون - بإرادتنا بإرادتهم بإرادة القدر - يتركون وراءهم حفرة شواء مقطبة فهم لا يرحلون بجذورهم وحدها، بل بأجزاء وكتل دامية تعلق بها من تربة القلب..

لكي أخرج من مدينتي كان يتعين عليّ أن أخرجها مني، والمدينة يا صديقي... أه.. لماذا لا أتبع التسلسل المنطقي؟ أقنعت نفسي بأنني لا أحبها ولا أمت لها بصلة وبأن الرحيل هو الخروج من الجحيم، عبرت الأبواب التي تثقب ببصرها الجلد والحديد وترى ما تخفيه، وبعد أن ختمت الأوراق وقدمت الإثباتات والبراهين جلست مستريحًا على بساط الريح، رفعت كوب العصير إلى شفتي وأنا أخلق في الفضاء، نظرت تحتها فرأيتها تتأبب مستيقظة وتنفض عن نفسها الوحوم، رأيت آثارها ونهرها ومآذنها والبرج والشوارع فلم تدر في صدري أي حركة، بل قلت بلا مبالاة كاملة: «هذا فراق بيني وبينك»...

ساعتها اقتلعت من صدري غابة أشجار بكاملها مخلفة هوة عميقة، وثقبًا أسود يشع برذا بداخلي، والمصيبة أنني لم أدرك ما حدث ولم أدرك أنني - بخروجي هذا - قد حكمت على نفسي بوحدة لا تنتهي؛ لأنني سأعجز عن توفير أرض للآخرين وجذورهم، والمصيبة الأكبر أنه عندما حط بساط الريح في مدينة النحاس، ووطأت أرضها بقدمي شعرت بخفة في صدري وروحي، وتصورت أن مبعثها السعادة التي تملؤني بما حققت ولم أعرف وقتها أن السبب ثقب!! وقد جر هذا عليّ مشاكل كثيرة ليس أقلها ما حدث في المحاكمة، وبعدها في السجن، لكن هذه

قصة لم يحن أو انها بعد، وسأقصها عليك في موضعها الطبيعي، أما الآن فعلينا أن نستمر فالوقت يجري بسرعة ويجب أن أنتهي من عملي قبل أن يقضي الله أمرًا... اكتب..

حدوتة الخبز والسيف

الوصول ليس إلا خطوة، فبعد الوصول هناك الاستمرار، ولكي تستمر لا بد أن تأكل. والأكل نتيجة طبيعية للعمل. أم أن العكس هو الصحيح؟ هذا ليس مهمًا، المهم هو أن هناك علاقة وثيقة بين الاثنين. ولكي تعمل لا بد أن تبحث. بحثت ونقبت وحفيت أقدامي سيرًا من شمالها إلى جنوبها، وعملت يومًا هنا ويومًا هناك، أقف أمام صندوق مفتوح أصف فيه صحنًا أكل فيها غرباء ثم أصب مسحوقًا أبيض بجوارها وأغلق الباب وأدوس الزرار فتدور وتخرج بيضاء من غير سوء، أو أقف أمام صندوق آخر ينفث من فمه المفتوح لهبًا ولا عز الصيف وأدس فيه العجين المزين بأشكال الطعام وألوانه، ثم أغلقه وأقف أتصعب عرقًا حتى أخرج منه البيتزا التي يأكلها الغرباء. لا أريد أن أحكي ما فعلته في أيامي الأولى فهو كثير وعديد ويحتاج لزمن كامل حتى أذكره؛ ولذا سأخذك فقط إلى نقطة التحول...

في مدينة النحاس - ككل مدينة - يتحدد قدرك بعدد قروشك، وليس لك أن تعمل إلا إذا كنت من أهل البلد، ولكن هناك من أصحاب العمل من يرغبون في إعطائك شغلًا بنصف الراتب أو رבעه والباقي يضربونه

في جيوبهم، وأنت لا تفتح فمك؛ لأنك لو ذهبت إلى الشرطة أو القضاء فسيحملونك وحاجياتك ويضعونك على أول بساط ربح، وسلام الله عليك...

المهم، في يوم من الأيام جاءني زبون من بلدي، كنت قد مرت علي شهور لم أنطق فيها كلمة بلغتي إلا في الوحدة أو في الأحلام، وما إن بدأت في الكلام حتى عجزت عن التوقف -سبق وأخبرت إن الكلام هو عشقي الوحيد- فكنت بكلماتي أعوض فترة الصمت الطويلة، وكان للغتي طعم الماء بالزهر والخيار المخلل والملوخية في فمي، تكلمت تكلمت ناسياً أن هناك صفًا طويلاً من أهل المدينة ينتظرون دورهم، وآه من أهل مدينة النحاس أولئك، لا يتحدثون إلا زعقاً وليست لشيء في الدنيا قيمة عندهم إلا الوقت، وأنا بثررتي كنت أضيع وقتهم، صاح أحدهم في أن أسرع، تجاهلته واستمررت في الكلام، زعق مرة أخرى فشخطت فيه قائلاً: «انتظر»، سبني فسببته، دفعني في صدري فما كان مني إلا أن أرسلت قطعة خشب تطير فتحت رأسه وسال الدم، حدث هرج ومرج، ومن دون أن أدري سمعت صوت عربة الشرطة يثقب طبلية الأذن والأذرع تلتف حولي والقيود تعض معصمي، ودخلنا في سين وجيم بلغة لا أفهم نصف كلماتها، ثم ألهمني ملاكي الحارس «أو شيطاني» أن أطالب بزيارة الملك، أصررت وألححت وركبت رأسي إلى حد التوقف التام عن الكلام..

وقد كان، أخذوني إليه وسألني عما حدث؛ فحكيت له الحكاية من طقطق إلى عليكم السلام، ضحك وهز رأسه الكبير وقال:

- لقد خرقت قانوننا وعملت بينما لم يكن مسموحًا لك بالعمل، وزدت على ذلك أن ضربت أحد رعاياي وأسلت دمه، وفي شرعنا لا بد من قتلك أو طردك، ولكن لحسن حظك أنني مثلك أحب الكلام؛ ولذا سأتشفع لك، وأحافظ على حياتك بشرط واحد...

- ما هو؟ أن أقبله من دون أن أعرفه...

- أترى ذلك الكرسي المعلق فوقه السيف؟ ستجلس عليه طوال لحظات يقظتك وتتكلم، عليك أن تقول ما لا يفهم، وأن تفهم ما لا يمكن أن يُقال، وإذا أخطأت فسينزل السيف السحري الإلكتروني ويقص رأسك.. ما قولك؟

أقول لك الحق إنني ترددت لحظة وندمت على قولي إنني قبلت الشرط، ولعنت الشيطان أو الملاك الذي أوحى إليَّ بمقابلة الملك، ولكن -بعد انقشاع سحابة الخوف الأولى- أدركت أن الطرد حقيقة واقعة لا محالة، أما الموت بالسيف فاحتمال.. قلت:

- أمرك يا مولاي..

كان الرزق موفورًا، والراحة كثيرة، والماء ساخنًا وباردًا، والنساء أكثر من شعر الرأس، لكن كأننا يا بدر لا ذهبنا ولا جئنا؛ فأصبحت أجلس على الكرسي تحت السيف المخيف أسمي الأسود أبيض والفقير غنيًا، والبؤس نعمة، أتكلم وأتكلم بلا انقطاع، حياتي معلقة بلساني ولساني لا ينطق إلا كذبًا واختلاطًا...

حدوتة سلسلة المفاتيح

وعلى الرغم من رنة الحزن التي كست صوته وهو يتحدث عن عمله لدى الملك وخيبة أمله في السفر الذي قيل إن له سبع فوائد، فإنه لم يجد له فائدة واحدة، ابتسم وقال:

- القصة التي سأحكىها لك الآن حزينة محزنة؛ ولذا يحسن بنا أن نعرف كيف نضحك منها وإلا أصابنا الجنون، وهي أيضاً من أغرب ما وقع لي وما سمعت عنه.. سلسلة المفاتيح الناطقة، وما جرى منها، وكيف انتهت بي إلى ارتكاب أول جريمة قتل في حياتي.. قلنا ألف مرة: لا تفكر وأنا أتحدث حتى لا تشتتي، ليست المفاتيح هي الناطقة يا بني آدم، ولكن السلسلة ذاتها؛ فاسكت واسمع..

آه منك يا قلب الإنسان، أبيع عمري وأفهمك، إذا ضربت كلباً عضك، وإن أهنت حماراً رفسك، ولكن الإنسان قد يُضرب ويُهان ويُخذل ويبقى على حب من فعلوا به هذا، ماذا تقول في رجل عشمك بالقرط فتقبت أذنيك، وبعد الألم والنزيف لم تر القرط ولا حتى ظله؟ ألا تكرهه مرةً لنكثه بالعهد، ومرةً للوجع الذي لحقك؟

كان في مدينتنا رجل طويل مهيب، على جانبي رأسه يلمع الشعر الأبيض وله بسمه تبرق، وكما تعرف عادةً ما تكون الأنوف الكبيرة قبيحة، إلا أن أنفه الكبير كان يلائم وجهه تمامًا ويضفي عليه وقارًا، أما كلماته فما من مرة نطقها إلا وتغير العالم، بكلمة منه جعل الأرض ملكنا، والماء ملكنا، والرأس مرفوعةً والقلب يخفق بالآمل، وعدنا واديًا أخضر لا يارق الرجل فيه بهم الخبز أو مصاريف المدرسة أو جهاز البنت، أحبيناه ومنحناه ثقتنا بلا حدود لكنه -ويا للعجب الذي لا ينتهي- لم يبادلنا ثقةً بثقة، واعتمد على خوفنا منه أكثر من اعتماده على حبناله، وأباح المدينة لمجموعة من أصدقائه هم الذين اشتروا شبكات الرادار ضعيفة النظر، والطائرات مقصورة الجناح، ولم يفعلوا شيئًا حين وجهت طائرات الفجر الضربة القاضية التي قلبت الكيان، تخيل أنني نشأت على حبه -ويا للعجب مرةً أخرى- فبعد أن خذلني مرتين مرةً بالهزيمة، ومرةً بالموت ظللت أحبه، وعندما تركت مدينتي كرهت ألا يكون معي ذكرى منه؛ فاشتريت قطعة عملة فضية من فئة الخمسين قرشًا على أحد جانبيه يرسم وجهه، وطلبت من صائغ أن يضع حولها سلسلة مفاتيح حتى أحمله معي طول الوقت ليذكرني بحبي الضائع وألمي المقتول؛ فلا آسف على الخروج ولا أندم..

لم أكن أدري وقتها أن ذلك النوع من الرجال لا يموت تمامًا، بل تظل فيه الروح حتى وهو في صورة نقش على وجه عملة، قال لي ذات يوم وأنا أسير في الشوارع المزدهمة:

- انظر إلى هؤلاء الناس.. إنهم ينتجون ما فيه الكفاية، لكنهم لا يعدلون في توزيعه.. انظر إليهم من راكب في سيارة كالمركب إلى نائم على حرف الرصيف.. الكفاية والعدل سبيلًا لإنشاء المجتمع المثالي..

أدخلت يدي في جيبي وقلبتة فسكت، لم أرد أن أجرحه ولا أن أذكر نفسي بما جرى، وقلت في عقلي. إنه رجل ذكي يفهم الآن أنني لا أريد أن أسمع صوته مرة أخرى ولن يزعجني بعد ذلك، سيصبح مجرد مومياء معدنية لعصر مضى أحملها في جيبي حينئذ، ولكن -كالعادة- خاب ظني، كل مرة انفردت فيها بامرأة أو سكرت حتى حسبت السيارة فيلاً؛ وبخني وأنبني وقال في ما أستقبحه ولا أريد أن أسمع، وبين الحين والآخر يلومني على تركي المدينة، ويذكرني بواجبي الذي هربت منه، وكان الحل الوحيد هو أن أدخل يدي في جيبي وأقلبه؛ فيسكت لفترة يعود بعدها للحديث عن إخوة مواطنين بينه وبينهم عهد وميثاق وأمل لا بد أن يتحقق كما يطلع الفجر بعد الليل مهما طال، ولما أوجع رأسي وأثار مللي بكلماته قلت له:

- اسكت وإلا بعثك لصائع من أهل المدينة بلحية كثيفة وقبعة سوداء ليزييك، ويصنع منك حلية.. ثم لماذا تتحدث على أية حال؟ ألا تدري أن العالم قد تغير؟

واندفعت معدداً كل ما حدث في مدينتي؛ فأصابه هلع وسكت لفترة طويلة، بالتحديد إلى أن بدأت عملي عند الملك، من يومها لم يعد هناك ما يسكته، طوال الوقت يكلمني عن المساواة والأخوة والحرية وآلاف آلاف الأشياء، وأنا أخبطه على رأسه وأقلبه يميناً وشمالاً وفي النهاية قلت له بلهجة شامية أتقنتها في مدينة النحاس: «وسبحان من اقتضت مشيئته تشريد جمعنا، وتفريق شملنا حتى أصبحنا لا نلقى أبناء ملتنا إلا في أرض الغير»:

- دخيلك خيو... ضجرتني وقلبت رأسي..

ومع ذلك لم يتوقف وأمرني -وهو العاجز بلا سلطة ولا مدفع- أن أمتنع عن القيام عن عملي عند الملك وأن أعود من فوري إلى بلدي لأزرع الشجر، قلت له أن يسكت ويتركني في حالي، خاصة أن الجزء الأكبر من الخطأ يقع عليه، لم يمتنع عن الكلام فرفعت السلسلة بين أصابعي وأغرقتة في كأس مملوءة وتركته هناك يكح ويشرق ويقفز ولا يستطيع الخروج... وبهذا ارتكبت -أنا العاجز عن قتل غملة- أول جريمة قتل في حياتي.. فليت الندم يقدر على إعادة لحظة مرت...

حدوتة النور والفئران الخسيسة

كنت ألِث من ثقل الحمل على كتفي عندما نزل، طقطق ظهره وركبتيه وغطى وقال:

- أنت تستحق بعض الراحة، لا يمكن أن تستمر وأنت ترجف هكذا وتنهج، سأمنحك ربع ساعة تستريح فيها..

«يا بن الأبالسة والملاعين.. ربع ساعة فقط؟.. أتستقطع الوقت من لحملك النتن؟»...

هكذا فكرت حين سمعت ما قاله، وقبل أن أسترسل في أفكاري استدار وصكّني على وجهي حتى خلت أن رسم أصابعه لن يُمحي من خدي ما حييت، زعق في:

- نزلت من على كتفيك فقط يا حمار، لكنني لا زلت أستخدم عقلك وأعرف كل ما يدور فيه، وإن لم تحفظ لسانك الزفر فسأحرملك من ربع الساعة بأكمله، الآن - وفقط لأمنحك فرصة نهائية - سأقصر العقوبة على حساب مدة هذه المناقشة من وقت راحتك... أمامك ثلاث عشرة دقيقة وسبع ثوان.. استرخ واستفد منها قدر الإمكان...

توسّلت إلى الصوت المتحدث داخلي أن يصمت، أقفلت عيني ورحت في النوم من فوري، وحين أيقظني كنت منتعشاً ومستريحاً كأني نمت ثمانى ساعات، أمسكت بالقلم وأقول لكم سرّاً كنت متشوقاً لمعرفة بقية الحواديت، فعلى الرغم من رذالته وسماجته وطولة لسانه أحببته فإننى وددت أن أعرف حكايته التي قال عنها:

- مرت عليّ شهور وأنا جالس تحت السيف أصارع خوفاً، وأعود إلى حجرتي لأصارع سلسلة المفاتيح، أفضع المعارك هي تلك التي لا يمكنك أن تنهزم فيها، ومعركتي مع الاثنين كانت من هذا النوع، الهزيمة في أيهما كانت تعني أن يطير رأسي.. المهم لكي لا أطيل عليك أقول كانت أعصابي متعبة، وجسدي ذائباً من الإرهاق، وقرر الملك أن يذهب في رحلة إلى البحر، سألني إن كنت أريد الذهاب معه، لكنني استسمحته في البقاء واستأذنته في أن أترك القصر فترة غيابه؛ فسمح لي بشرط أن أخبره السبب في عدم رغبتني في الترحال معه، كنت جالساً تحت السيف السحري الملعون فقلت:

- أنا يا مولاي أحب البحر وأكره البحر، أكرهه؛ لأنه يذكرني بالاختيار المستحيل، وأحبه لأنه يؤكد لي أن الاختيارات لا نهائية، البحر هو البحر؛ لأنه يتكون من آلاف ملايين بلايين القطرات التي تذوب في بعضها، وبتحاضها تخلق الأمواج الخالدة التي لا تموت، ولكن إذا أحست قطرة بتفردا وخرجت من الكل الكبير، داعبها شعاع الشمس بدفء ثم حرارة ثم التهام، وعلى كل قطرة أن تختار بين الذوبان والتبخّر، وبين الاثنين درجات عديدة ومزيج بينهما؛ ولذا أريد الذهاب إلى البحر وأخافه؛ لأن البحر يشوشني ويثير خلطي فهو كبيرٌ وعريضٌ وعميق، ولكن

ولّ وجهك أي وجهة ترضاها، فلن تجد إلا قبلة السماء والأرض
توحدهما في خط الأفق الذي يقول لك إن الحرية مستحيلةٌ مهما
كانت المسافة شاسعة..

رضي السيف عن قولي المختلط فلم يجرر عنقي، وقام الملك من
مقعده، وبإشارة من يده وابتسامة قال:
- اذهب... أنت الآن حر لمدة ثلاثة أسابيع... استمتع بها..

قمت من المقعد المخيف وخرجت من القصر أكاد أطيّر، ومن فوري
استأجرت شقة، ومدينة النحاس ليست كمدينتي؛ فالشقة فيها سهلة
وليست أمرًا أبعد من النجوم...

كانت الشقة خاوية ليس فيها إلا الأرض والجدران، ومع ذلك في
أول ليلة عندما لففت جسدي في البطون، ووضعت الحذاء تحت رأسي
شعرت بسعادة تسيل على جوانب قلبي كالعسل المسكوب ترحف
وتتلوى سميكة حلوة، لكنني وكعادة بني البشر الذميمة، لم أكن أعلم
أن تلك الشقة تدخر لي مصائب وبلاوى لم أعرف لها وجهًا من قفا من
سرعة انهمارها على رأسي...

من عز نومي استيقظت مذعورًا على صوت نفير يرن، رأيت أمامي
مجموعة من الفئران تسير في دائرة من نور، وتقدم نحوي ملتفة حول
زعيمها الذي جلس في عربة يجرها ستة من رعاياه، لا أستطيع أن أصف
لك شعور الاشمزاز والخلط الذي أحسست به، فمن ناحية أنا أكره
الفئران وأتقرز من لونها القذر الكالح، وأجسامها الصغيرة المشعرة ومن

ناحية أخرى، كانت الفئران التي اقتربت مني نظيفة بشعور مهندمة مصففة، الذكور منها تربط رقبتها برباط أزرق والإناث برباط أحمر، وكانت جميعها تبتسم بود حين دنت مني، قال الزعيم:

- جئنا نلقي عليك السلام ونحدث معك فيما ليس منه بد..

- وما ذاك؟

بعد تفكير وتردد قال:

- حين جئنا هذا المكان لم يكن فيه أحد، ونحن نعرف أن بين جنسنا وجنسكم ما صنع الحداد؛ ولذا حين أتيت أنت وألقيت رحالك هنا ملأنا الخوف، وقلنا: جاءنا الموت وذلك ما كنا منه نحيد، عقدنا مجلسنا وتشاورنا وقرّر قرارنا على أن نأتيك نعرض عليك حلًّا آمليْن أن تقبله..

- وما حلك؟

- إذا وافقت على أن تترك من بقايا طعامك ما يكفيننا وتركتنا في حالنا، فسنحلف يمينًا بعدم الخروج من مخابئنا طيلة وجودك في البيت، ولن تقع عينك علينا ليلاً أو نهاراً وبذلك نعيش معاً في محبة وسلام.. ما قولك؟

وافقت من دون تردد، أنا لست قاتلاً بطبيعتي وكراهيتي الشديدة للموت ورعبي منه يمنعانني من القتل، وبعد الجريمة إياها التي حدثتك عنها وجدت أن العرض طيب ومقبول وكفى الله المؤمنين شر القتال. ومهما قيل لك عني يا صديقي بعد أن أذهب فلا تصدقه، الله شاهدي أنني التزمت بالاتفاق التزاماً كاملاً ولكنهم -تبريراً لما فعلوه بي- يحاولون تلطيخ سمعتي ويقولون الكثير فلا تصدقهم، كنت أترك الزبالة

خمسة أيام أو ستة في المرة الواحدة لكي تأكل تلك الفئران الخنسية كفايتها، أصبحت أسكن في حظيرة يأنف الخنزير العيش فيها وكل ذلك من أجلها، لكنها لم تكتف. بما كنت أقدمه لها وبدأت تتسلل هنا وهناك، وألح واحدًا منها فأحاول لطيفة قلبي أن أجد له الأعذار، وأقول لنفسي شاب طائش أو طفل ساذج لا يدري ماذا يفعل، ولكن قُطع الشك باليقين حين رأيت ما يقرب من نصف القبيلة تخرج في هجوم مدروس منظم لتحتل المائدة التي وضعت عليها طعام العشاء، وانقضت على اللحم والخضروات فأفنتها في لحظات وسكبت نبذي الأحمر بلون الدم، ولعقته وهي ترقص فرحة بانتصارها عليّ، وبالوجبة الدسمة التي أكلتها من دون وجه حق، أحزنتني خستها وغدرها - سبق وأخبرتكم أنني أتسامح في أي شيء إلا خرق القواعد الذي كان أحد أسباب غربتي واتكالي على الكريم خارجًا - فتركت البيت مصممًا على أن ألحق تلك الفئران درسًا، أنفقت ثلث ما كان معي من نقود على شراء المصايد، ومصايد الفئران في مدينة النحاس ليست كمثيلتها في مدينتي، ليست قفصًا يدخله الفأر فينغلق عليه ولكنها مقصلة مشدودة بوزن الطعام، وما إن يقترب منه اللعين حتى تنفجر مفكوكّة وتنهال على عنقه فيحل أجله، عمّرتها جميعًا بالأطايب اللذيذة ووضعتها في كل مكان وجلست على الأرض أنتظر، بعد لحظات سمعت مائة مصيدة تنقل، قمت وجمعت الجثث ورميتها في الجير الحي وعمّرت المقاصل مرةً أخرى، أصبحت قاتلاً محترّفًا أقتلها مائة مائة، بدأت أبحث عنها وأغريها بالخروج فقط لكي أقتلها، نسيت الوقت والعطلة ونسيت حتى أنني ملزّم بالعودة إلى قصر الملك، لم يبقَ في الدنيا إلا الانتصار اللذيذ..

لم أدرِ ساعتها أن واحداً منها قد هرب، الزعيم هرب وذهب إلى الملك يستجير مني ومما فعلت، وطبعاً كان الجو خالياً له ليقول ما يشاء، وبهذا أوغر علي صدر الملك -الذي كان غاضباً أصلاً لعدم عودتي في موعدني- فأصدر أمره إلى رجال الشرطة بالقبض علي فوراً وحماية رعاياه من الفئران من هجومي الوحشي، وفجأة سمعت صوت الميكروفون يدوي:

- سلم نفسك.. المكان محاصر من جميع الجهات.. لا فائدة من المقاومة..

لكنني كنت أعرف سرداباً تحت الأرض فهربت منه، وحال خروجي وجدت رجلاً يطلع من سيارته؛ فلكمته في وجهه وأوقعته على الأرض وخطفت المفاتيح من يده وبدأت أقود السيارة متجهاً إلى بر السلامة، فعلت هذا مع أنني أكره قيادة السيارات، ذلك الحيوان الغريب الذي لا يبدو أنه سينقرض، يعطيك إحساساً بالسيطرة الكاملة؛ تدوس فيجري وتدوس فيقف وتسكر بالإحساس فتطير على الأرض، لكن المصيبة أنك لست بمسيطرٍ على الإطلاق، فما هو إلا مسمار ينفك أو هواء محبوس في كاوتش يفر حتى تجد نفسك في زنقة لا مهرب منها وفيل قتيل بين يديك لا يستطيع أن يمضي خطوة لقدام على الرغم من وزنه وقوته وحديده الذي يأكل بعضه بعضاً، لكن هذا استطراد لا معنى له ولا محل؛ لأن وقوعي في يد رجال الحكومة الذين يحملون المسدسات وترخيصاً بالقتل لم يكن نتيجة خيانة سيارة، قررت في لحظة حرجة أن تهجري وتتركني فريسةً للذين لا يعرفون رحمةً ولا شفقةً، المسئول الأول عما حدث لي هو النور الأحمر وشوارع مدينة النحاس..

لما ركبت السيارة وأدرت المفتاح تجلّى لي نور أحمر براق، ومض عدة مرات وكأنه يحدثني بلغة ضوئية غير مفهومة، تجاهلته وبدأت أتحرك فاقترب من النافذة وقال:

- أنا ممنوع من التحدث بلغتكم، ولكن نظرًا إلى غبائك المفرط قررت الخروج عن القواعد... اتبعني..

وكالمسوع انطلق جاريًا ناسيًا أن من يتبعه إنسان له حجمٌ ووزن وأبعاد، اتجه يمينًا وهدأ سرعته وكأنما ليتأكد أنه ليس في طريق الندامة، ثم جرى مرة أخرى وانحرف فجأة يسارًا حتى كدت أصدم السيارة في عمود نور لولا لطف الله، لسبب ما وثقت بذلك الضوء، وسلمت له أمري تمامًا وظللت أجري وراءه في شوارع المدينة، وآه من تلك الشوارع، مستقيمة مرقمة تتعاهد تتوازي تتقاطع في شبكة منظمة، مدينة للغرباء خططت ليعرفها الغريب الداخل وفي يوم وليلة تصبح مدينته، شوارع جافة لا تعرف نعومة الانحناءات ولا استدارة الميادين ولا دفء الحواري الضيقة، واضحة تسهل معرفتها وحفظها ومع ذلك فما أكثر الذين يتوهون فيها...

شوارع مدينة النحاس من اتجاه واحد، إذا اخترت طريقًا تقطعه إلى نهايته، فلا يمكنك أن تدور وتعود، ما تتركه خلفك تتركه بلا عودة، وما ينتظرك عليك أن تقبله، ولما انطلقت وراء مرشدي النوراني وجدت الشوارع وكل منها يسيّرني في اتجاهه الواحد، أدور في مربعات والافتات تحيط بي قائلة: اتجاه واحد واحد واحد واحد..

وفجأة رأيت النور يرتجف، نظرت في المرأة العجيبة التي تجعلك ترى ما وراء قفاك، فوجدت عربات الشرطة تأتي من اليمين واليسار فاستسلمت لقدري، وغزتي ذكرى ليلة دخولي المدينة، الليل والبرد اللاسع وخوف الغريب والبنائيات الشاهقة والحقيبة الثقيلة تحمل حياةً بأكملها، ركبت التاكسي ومددت ساقي وأشعلت سيجارة، ورأيتها صفراء فاقع لونُها تقول بأحرف سوداء جافية: «ممنوع الدوران للخلف»، ليتني أدركت معناها في حينه لكننا لا نتعلم أن النار تحرق إلا عندما تسود أظافرنا ويحترق الجلد..

أوقفت الحيوان المعدني ورفعت اليدين معلناً استسلامي، وعندها رأيت النور الأحمر الخائن يصعد في السماء من دون أن يحاول -ولو حتى من باب الأدب- أن يكتم ضحكاته الشريرة...

أمسكني الضابط والعسكري كل من ذراع وأمطرائي بالأسئلة، كنت في حالة من القرف واللامبالاة فلم أعطهما قيمة أكبر من زن الناموس، هزاني بعنف وانهاالا على وجهي بالأقلام فقلت بصوت فاتر محايد لا له ولا عليه:

- ولماذا أتعب نفسي؟ ألم يقلها دائتي من قبلي؟ «تخل عن كل أمل».. ألم ينقشها على باب الجحيم منذراً الداخِل أنه طريق من اتجاه واحد، وأن الدوران للخلف فيه ممنوع؟

رمياني على جنبي في سيارة البوليس مربوطاً مكبماً، وانطلقا كالصاروخ - والصوت العاوي يفتح الطريق أمامهما - إلى المحكمة والسجن..

حدوتة المحاكمة والسجن الطويل

لم تكن الرحلة إلى المحكمة طويلة، بعد دقائق من وقوعي في أيديهم وصلنا إلى مبنى ضخّم، وسلمني الضابط لموظف جالس أخذني من يدي إلى القاعة، أدخلني القفص وقيدني بسلاسل بالغة الطول من الألياف الزجاجية دقيقة شفافة لا تكاد ترى، كنت مربوطاً أي نعم، لكنني كنت أستطيع الحركة في أي اتجاه، دخلت هيئة المحكمة وتناوب أعضاؤها عليّ كلّ في دوره يطرح سؤالاً، نسيت تقريباً ما قالوا وما قلت، لكنني أذكر جيداً اللحظة الرهيبة التي دق القاضي فيها بمطرقة بعد التشاور والتداول وقال:

- حكمت المحكمة حضورياً على المتهم بالسجن مدى الحياة..

فك الجنود قيودي وسحبوني إلى الخارج وذهبنا إلى السجن، من فتحات سور الأسلاك الشائكة المكهرب رأيت المبنى الضخم والحديقة الواسعة المملوءة بالزهور والأشجار، كان الجو فظيع الحرارة والرطوبة ولكن -عندما دخلنا حجرة الاستقبال- كان جهاز التكييف يشيع في أنحائها برودة منعشة، غاصت أقدامي في السجاد الوثير، وتنقلت عيوني بين اللوحات المعلقة على الجدران، وموسيقى موزار الناعمة تنشد في

الخلفية على الأوتار، جلست في مقعد ضخم احتواني بذراعيه وضمني إلى صدره، من تعبي بعد أحداث اليوم والليلة السابقين نمت لأستيقظ بعدها بلحظات على صوت جميل، فتحت عيني فوجدت شقراء لم يبدع خراط البنات مثلها منذ زمن تقف أمامي بشورت قصير أتاح لي أن أرى كفايتي من ساقها، وداخل قميصها الفضفاض تخرج نهداها، بدأت راحة يدي تحكني تريد لنفسها مستقرًا، استجمعت شجاعتي ولمستها فقالت بابتسامة حلوة:

- ليس الآن فأنت متعب، سأحضر لك شرابًا ينعشك ولقمة تأكلها، وربما أحضرت زميلتي المتخصصة في المساج لتدلكك، وبعدها سنرى ما الذي يمكن أن نفعله..

وبسمة عذبة ونظرة لعب تركتني غارقًا في حيرتي، أي سجن هذا؟ السجن الذي أعرفه تأديب وتهذيب وإصلاح بالحرمان من كل شيء أما هذا فأمره غريب ولذلك لا تحق لي الشكوى. عادت الحسناء تحمل كأسًا مكتسية بقطرات ماء دقيقة صغيرة جرى لها ريق، وجاءت معها فتاة أخرى لا تقل عنها حسنًا وتفوقها بالبيكيني الذي ترتديه ولا يستر إلا أقل القليل..

- خذ اشرب هذا.. ألا تحب البينيا كولاذا؟
- الحقيقة يا قمر أنني لا أعرفها..
- إنه كوكتيل مزيج من الروم وكريم جوز الهند وعصير الأناناس...
ستعجبك جدًا، سأتركك في رعاية زميلتي الآن، وحتى أعود يستحسن أن تشاهد برنامجًا في التلفزيون ينسبك ما وقع لك اليوم..

جذبت ظهر الكرسي فتحول إلى شبه أريكة، رقدت على بطني والكأس في يدي، وذات البيكيني جلست إلى جوارتي تدغدغ رقبتني بأصابع بلورية يفوح منها شذا الياسمين، بين الحين والآخر كنت آخذ رشفة من الشراب ثم أعود للاستغراق في الفرجة على سيارات تطارد بعضها بعضاً وجماليات يذبن في أذرع الأبطال، ثم - في اللحظة الحاسمة - ينقطع كل شيء، وأرى رجالاً ونساءً يلعبون التنس ويضحكون ثم ينطلقون في طريق الجبل الشامخ المرصع بالينابيع والأزهار للاحتفال بأول زجاجة بيبسي يشربونها في يومهم، وجميلة الجميلات جنبي كلما تمكنت من نزع عيني عن الشاشة حطتا على جلدها الوردي الشفاف، وأعود لشرابي وأرى الجياد تثير الغبار تحت حوافرها والبطل الشجاع ينقذ الحبيبة والطلقات تتطاير من حوله تقتل الكل قاعدين كانوا أم واقفين أم زاحفين.. أكان ذلك صوت الرصاص في التلفزيون أم وقع أقدام خارج الغرفة؟ دخل الحارس المسلح وأعلن بصوت منخفض:

- حجرة العمليات جاهزة...

ركبني دعرٌ فصرخت:

- ياسيدي الحارس لا بد أن هناك خطأ، فأنا سجين وصحتي الحمد لله كالحديد ولا أحتاج لعملية.. أنا مجرد سجين..

- ليس هذا شغلي.. أنا عبدٌ مأمور قالوا لي أجئ بك فلا تُكثِر الكلام وامشِ قدامي..

زعقت وشوّحت بذراعيّ وطار الوقت الجميل وأثر الخمر من رأسي.. قلت:

- لن أذهب إلى تلك الحجرة حيّاً... خذني عنوةً...

عندها تردد في الحجرة صوت آتٍ من خلال ميكروفون خفي يقول
بنبرة صديقة ودود:

- لماذا تخاف؟ ألم يثبت لك سجننا حسن نياتنا؟ ألم يثبت لك أن
احترامنا لحقوق الإنسان لا يتزعزع حتى لو كان الإنسان مجرمًا
مثلك؟ ألا ترى أنه أروع السجون وأكثرها إنسانية؟ بعض النزلاء
يحرصون على ارتكاب جريمة صغيرة قبل انتهاء مدة حبسهم
حتى لا يغادروه، حقيقةً لا أعتقد أننا أفرجنا عن أحد خلال
عشر سنوات ولهذا فالتكلفة عالية وحارقة كالنار ولا تستطيع
ميزانيتنا تحملها، وأنت طبعًا تعرف تقدمنا العلمي والتكنولوجي
المذهل الذي جعل مدينتنا أعظم مدن الأرض، طلبنا إلى علمائنا
أن يجدوا حلًا لمشكلة السجن المكلف، وبالطبع نجحوا في
مهمتهم، توصلوا إلى عملية جراحية بسيطة تأخذ دقائق لا أكثر
نستأصل فيها الروح ونسجنها لدينا، ونترك الجسد حرًا يعيش
في بيته ويتحمل نفقاته بنفسه، وعندما يحل موعد الإفراج نعيد
زرع الروح فيه.. هكذا ببساطة! وقبل أن أنسى عليّ أن أؤكد لك
أن حقك القانوني والدستوري في زيارة روحك السجينة حقٌّ لا
يمكن لأحد أن ينكره عليك.. هل اقتنعت؟

قلت لنفسي: هل يضيرني فقدان الروح وأنا بقلبٍ مثقوب؟ دفعني
الجميلة فقمت، دخلنا حجرة مملوءة بآلات معقدة ولمبات صغيرة تضيء
ثم تنطفئ، وأصوات قصيرة حادة ترن ثم تخفت حتى تنتهي، خدروني
بشيء له رائحة العطر وأرقدوني على سرير العمليات..

من جهاز فوقى انطلق شعاعان، سار واحد في رأسي، والثاني في قلبي، امتدت يد الطبيب المفتح إلى صدري وبالمشرط استل منه شيئاً صغيراً أبيض وضعه في برطمان مملوء بسائل معقم وأغلقه بإحكام، ثم وضعه خلف قضبان حديدية على رف يمتلئ بأوعية مشابهة على كل منها اسم ورقم، أعطاني شعاعاً آخر في الرأس فرال الألم..

- انتهت العملية بنجاح.. أهنتك! تستطيع أن تأتي هنا يوم الخميس الثاني من كل شهر لزيارة روحك، وكذلك عليك أن تمر في كشف سنوي دوري لتأكد أن جسمك لم يصنع روحاً جديدة، وفيما عدا هذا أنت حرّ تمام الحرية.. أخرجوه من هنا..

وحملوني يا صديقي من ذراعيّ وساقيّ كالفسیخة الميتة، أخرجوني من المبنى المكيف وتركوني على الرصيف في الحر اللافح، وعدت وحدي إلى المدينة سجيناً، وعليّ أن أبدأ من جديد، بحثت عن عمل هنا وهناك، ولكن كل ما كان يهمني في تلك الفترة هو أن أعدّ اللحظات انتظاراً الموعد الزيارة وأذهب لأقضي معها عشرين دقيقة لا تزيد ولا تنقص، وأقول لك الحق لا ابن عمه مللت هذه الزيارات بعد مدة فلا أنا أفهمها ولا هي تفهمني ونزداد كل يوم عن بعض ابتعاداً، واتخذت قراراً بالامتناع عن رؤيتها تماماً وبألا أقرب السجن إلا في موعد الكشف الدوري..

ومرة ذهبت إلى هناك فقال لي الطبيب:

- ألف مبروك.. صدر أمس حكم بالإفراج عنك؛ لحسن سيرك وسلوكك.. تفضل معي إلى حجرة العمليات..

وبسرعة رقدت وأرجعوا لي روحي، أمرني الطبيب أن أظل في
المبنى لمدة عشرة أيام، في البداية كان كل شيء جميلاً ومبهجاً وبعد
يوم تقريباً لم أعد أدرك شيئاً، قيل لي بعدها إن الحمى لم تفارقني لحظة
ترتفع درجة حرارتي إلى مائة ثم تنخفض إلى ما تحت الصفر، أهذي
وأتعذب، واكتشف الأطباء والعلماء أنهم أمام حالة غريبة لا سابقة لها؛
فجسدي - من طول ما تعود العيش من دون روح - يرفض العضو
الجديد الغريب!!

بدأ العلماء بحثهم عن حل للمشكلة، وعملوا ليل نهار لإعادة حرיתי
إليّ، استمر الألم والعذاب حتى أعلنوا عجزهم وقالوا إن الحل واحد من
اثنين أحلاهما حنظل.. إما إعادة استئصال روحي وإما الموت.

وطبعاً لست بحاجة إلى أن أقول لك إنني أفقتُ والمصباح المنير
فوقي، انتهت العملية فأعطوني روحي في إنائها المعقم المحكم الإغلاق،
موجودة أمامي وفي متناول يدي ولكن...، وحتى عندما يأتي الموت لن
يجد ما يأخذه إلا هذا البرطمان.. ألا تريد أن تراه؟

أخرجه من جيبه وعرضه عليّ، لم أجد فيه ما يثير الاهتمام، ولكنني
-أدباً- تفحصته بإمعان، علي الأقل لأتجاوز الصمت الثقيل الذي ملا
الحجرة واستمر حتى قطعه قائلاً:

- وكلما رأيت أصابع الفجر الوردية تزيع الستار الأسود عن وجه
العالم، تيقنت أن كل شيء يتكشف في النهاية عن الأكذوبة
ذاتها..

قالها ولف الإناء الزجاجي المعقم بعناية ودسه في جيب الجاكتة، نزل
عن كتفيّ وصافحني بود وقبل يدي وقال:

- ما حكيتك لك ليس إلا ورقة واحدة في غابة بها آلاف الأشجار،
لكنني أعلم أنني أثقلت عليك كثيرًا وما أردت أن أزيدك أو أزيد
نفسي تعبًا.. فأنا الآن مرهقٌ تعبًا... وأريد النوم..

كنجستون، جامايكا مارس ١٩٨٥

نيويورك أبريل ١٩٨٥

الجزء الثاني

حدوتة اللقا نصيب

قمت من نومي مفزوعاً على الصوت الزاعق. أول ليلة أتاني في المنام
وقال هامساً:

- ما كنت أحسبك من الغز التتر الذين لا يوحشهم من غاب ولا
يؤنسهم من حضر..

في الليلة التالية جاء وصوب نور بطاريتيه في عيني وقال عاتباً:
- لم أظن قط أنك ممن يغدرون ويخونون العيش والملح..
والليلة زعق بأعلى صوته بازدراء:
- العشرة لا تهون إلا على أولاد الحرام.. فهل أنت منهم؟

رددت مغتاضاً:

- من أنت؟ وماذا تريد؟ ولماذا تقلق منامي في كل ليلة؟
- أما من أكون فهذا ليس شأنك، ولا أريد لك إلا أن تكون خيرًا
وابن حلال، وسؤالك الأخير من أعجب الأعاجيب؛ فكيف
لك أن تنام قرير العين بعد خيانتك العيش والملح وهوان العشرة
عليك؟

قلت بحيرة بالغة:

- لا أفهم شيئاً .. أرجوك فسّر لي ما غمض عليّ ..
- نفخ ضيقاً وقال بنبرة لا تقبل نقضاً ولا استثناءً:
- ابحث عنه ..
- من هو؟
- الآخر الذي روى لك حواديته ...

«عن أي عشرة وعيش وملح يتحدث هذا الصوت الليلي؟ لقد اقتحم ذلك اللعين حياتي ضيقاً ثقيلاً من دون دعوة، احتل عقلي وركب كتفي وساقني كالبهيمة لأكتب له حكاياته، لم أسعد بشيء قدر سعادتي بمفارقتة، ثم يأتي هذا الصوت ويتهمني بالخيانة والغدر ويلقي بهذه المهمة الثقيلة على عاتقي؟ ولكن ما يتكرر في اللحظة ذاتها لثلاث ليال متوالية ليس حلماً ولا كابوساً، إنه أمرٌ يحسن بي ألا أتجاهله، ولكن ليس في يدي طرف الخيط الذي يقودني إلى مقصدي في المتاهة ولم أحدث ثقباً في كيس الطحين فيخر منه ويرسم لي المسار. لم أره ولم أسمع عنه شيئاً قط طوال الأعوام التي انقضت منذ نزوله عن كتفي لحظة انتهائه من سرد حواديته؛ فكيف أجده ومن أين أبداً؟»

سمعته يهمس في أذني:

- هذه آخر مرة سأطوع فيها بمساعدتك، لن تسمع مني ولن تراني بعد ليلتنا هذه أبداً.. اذهب إلى الحانة التي قابلته فيها لأول مرة.. ربما وضعت بذلك قدمك على أول الطريق..

استقبلني الخمار هاشاً وأعطاني قدحاً. سألته عنه فامتعض وانقلب وجهه. قال:

- لم أره منذ منعناه من دخول الحانة.. ثلاث أو أربع سنوات لا أذكر..

- ولماذا طردتموه من واحتكم؟

كان يأتي وحده كل ليلة. يجلس في ذلك الركن ويطلب زقاً من نبيذ. ويظل يشرب ويشرب بلا انقطاع وكأنه يروي ظمأ الكون كله. في أحيان قليلة متباعدة كان ينتشي ويصبح محدثاً رائئاً يروي علينا حكايات جميلة تنعش القلب وتفك أسر الخيال، يرقص ويغازل ويضحك ويأمر لكل الجالسين بشراب على حسابه، ويتألق ككوكب سماوي في الأفق. ولكن كان الأمر يختلف في معظم الأحيان. كلما انحدر النبيذ في حلقة ازداد كآبةً وحزنًا. يجلس في ركنه صامتاً يعبّ خمرة، وتسيل دموعه على الخدين، ولا يسمح لأحد أن يقترب منه ولا أن يحادثه. كنا جميعاً نتركه وشأنه ولا نحاول اقتحام عزلته. المهم، في إحدى الليالي أتى في موعده، أفرط في الشراب كعادته، اقتربت منه لأنصح به أن يعود إلى بيته ويكتفي بما أصاب. نط كالممسوس واستل سكيناً كاد أن يطعنني به لولا لطف الله بي وأخذ يصرخ بأعلى صوته:

- يا أولاد الكلب.. يا أبناء الأفاعي.. يا نسل العاهرات والزواني..

سرقتم روحي.. من منكم اللص؟ إن كان رجلاً فليكشف عن وجهه.. أين روحي يا سلالة القرودة؟ بماذا تفيدكم سرقة الروح وهي لا تُباع ولا تُشترى ولا تُرد ولا تُستبدل؟ انطقوا يا خنازير.

لم يملك أحدٌ منا له إيقافاً. انطلق كعاصفة يحطم الكؤوس ويهشم القناني والدنان، ويكسر الموائد، ويدمر المقاعد، ويحول اللوحات الجميلة التي تزين الحائط إلى غبار وفتات .. أتت عربة الشرطة ولم ينجح أربعة من رجالها في السيطرة عليه حتى غافله واحد من الزبائن وناولوه بظهر الكرسي على أم رأسه؛ فخرّ مغمياً عليه. جرّوه كالخثّة وأخرجوه من حاتني ..

بعدها بأشهر عاد منكسراً ذليلاً. عرض عليّ كيساً ثقيلاً من دنائير ذهبية؛ مقابل ما أحدثه من تلف ودمار. قلت له إنني لا أقبل العوض، ولكنني لا أريد أن أرى وجهه القبيح ثانية. وهددته باللجوء إلى العسس مرة أخرى إن لم يتركني وزبائني في حالنا ويتعد عن طريقنا ..

«أشكرك يا صوت الأرق وإفلاق المنام. هديتني إلى أول الطريق لأجده حارة سد. ماذا أفعل الآن في المهمة المستحيلة التي أسندتها إليّ؟»
بعد هنيهة صمت استأنف الخمار حديثه قائلاً:

— لم أره منذ ذلك اليوم.. لكنني سمعت من بعض الندامي أنه كان يقضي بعض الوقت في صحبة المجذوب الذي يسكن على أول الشارع... اذهب إليه، علّه يعرف عنه شيئاً...

أمام عشة الشريد وقفت. علبة كبيرة من الكرتون مغطاة بأكياس النايلون، وبداخلها بطانية ممزقة يتقاسمها مع جحافل القمل وأفواج البق، ويهذي في نومه بكلمات مبعثرة بلغة لا أعرفها.. ملابسه خرق

مهلهلة، والتراب يكسو جسده ويعطيه لوناً غير محدد. تنحنحت ففتح عينية:

- لماذا تحجب نور الشمس عني؟
- عندي سؤال أريد أن أطرحه عليك..
- ليس عندي جوابه..
- كيف تعرف من دون أن تسمع سؤالي؟
- ما أكثر الأسئلة والرد دوماً واحداً: لا أعرف ولا أحد يعرف شيئاً..

كلما تصورت أنني اقتربت خطوة، فاجأني الجنون أو القسوة ببعدي عن مقصدي. لكنني لا أملك لما قاله الصوت الليلي تجاهلاً. قلت بضراعة:

- «أرجوك اسمعني... أنا مكلف بالبحث عن شخص وقال لي أولاد الحلال إنك قد تعرف عنه شيئاً..

وصفته له وحكيت ما فعله في الحانة وكيف طُرد منها فقال بضجر:

- اذهب إلى المقهى في الشارع الموازي ... على طول الحائط الأيسر ستجد أبواب مغارات مضيئة.. اجلس أمام إحداها واتبع التعليمات.. ربما أتيح لك أن تعثر عليه أو تعرف عنه شيئاً...

جلست على مقعد مريح أمام باب المغارة. نقرت على الزر الأيسر مرتين؛ فطلع لي ملكان سألاني عن اسمي وديني وكتابي وطلباني كلمة

السِر. عندما قدمتها انفتح أمامي شريط من نور برقت تحته كلمات:
« من فضلك اكتب اسم الشخص الذي تبحث عنه ثم أطلق السهم
القابع على اليمين»

بحثت عن الحروف على المفاتيح المصفوفة. ببطء المبتدئين وترددتهم
، كتبت: «الآخر» وأطلقت السهم فتبدت أمامي ساعة رملية من لؤلؤ
يرق وتحتها تومض وتنطفئ عبارة «من فضلك انتظر» ثم حلت محلها
قائمة طويلة:

- ١- «الآخر» المتعوس على الرغم من الفانوس.
- ٢- «الآخر» صديق ذات الدواهي أم الحلول.
- ٣- «الآخر» خادم أهل الله الكرام
- ٤- «الآخر» الذي سمع (ونسى) أجمل أشعار الدنيا.
- ٥- «الآخر» الذي ولد ولم يُولد.
- ٦- «الآخر» الذي أبصر الحقيقة في مرآة الكراهية.
- ٧- «الآخر» الذي أحال ذهب الحب إلى تراب.
- ٨- «الآخر» الذي لم يجد الشفاء في عموم البلاء.
- ٩- «الآخر» الذي ذهب وعاد إلى مدينة النحاس.

إذا كان الشخص الذي تبحث عنه موجوداً في هذه القائمة، انقر على
اسمه مرتين وسنوافيك بالمعلومات والتعليمات. وإذا لم يكن موجوداً
فترجو منك تضيق نطاق البحث بإدراج المزيد من المعلومات والصفات
المحددة.

حركت السهم وقلبي يدق بعنف وترقب صوب رقم (٩). نقرت
الزر الأيسر مرتين فجاءني الرد الفوري:
«يمكنك أن ترسل رسالة إلى هذا الشخص. اربط ما تريد قوله
بساق حمامة الزاجل الإلكترونية؛ فتعود إليك بالرد قبل أن يترد إليك
طرفك».

كتبت رسالة مختصرة ذكرته فيها بنفسي وبأيام العذاب التي قضيتها
معه. أخبرته بصراحة أنني لم أكن لأسعى للقاءه لولا أن هاتفاً أمرني
بالبحث عنه. بعد أقل من ثانية جاءني رده المقتضب:

«انتظرت رسالتك لسنوات، ولكن اللقاء - كما يقولون - نصيب.
عنواني كذا وكذا... تعال من فورك».

حدوتة فانوس المتعوس

جلست متكئاً على الهراوة الغليظة التي يضربون بها الكرات في ملاعب مدينة النحاس. عندما استقبلني بالأحضان قلت له - كاذباً بالطبع - إنني اشتريتها تشبهاً بأهل المدينة وتضليلاً لهم حتى أذوب بين ظهرانيهم؛ فلا يلحظ أحد غربتي أو غرابتي. لكن الحقيقة هي أنها سلاحٌ للدفاع المشروع عن النفس. عند أول بادرة خيانة منه أو أي محاولة للقفز على أكتافي أو احتلال عقلي مرة أخرى سأهوي بها على رأسه النجس وأهشمه؛ حتى تختلط بقايا مخه بفتات عظامه بقطرات الدم المتساقط وأدس ذيلي بين أسناني وأفر من دون أن يشوفني أو يدري بي أحد. بعد الترحيب الحار قال:

- لن تحتاجها...

سُقت الهبل على العبط على الشيطنة وتساءلت ببراءة زائفة لا تنطلي إلا على البلهاء:

- ما هي؟

- الهراوة التي تحملها. أيعقل بعد أن استجبت لدعوتي وأتيت بعد سنين لزيارتي، أن أجازي صنيعك أو أكافئ معروفك بالغدر؟

- تلعثمتُ وتعثرت الكلمات على شفتيّ ثم قلت لنفسي: إن الصراحة وإن كانت موجعة أفضل ألف مرة من اللف والدوران، فرددت:
- تاريخنا معًا لا يطمئن إلا أبله أو محبوبًا، وفي مدينتك يقولون: «من تلسع الشورية لسانه ينفخ في الزبادي»، وفي مدينة النحاس - على ما سمعت - يقولون: «عارٌ عليك إن خدعتني مرة، أما إن خدعتني مرتين، فالعار كلُّ العار عليّ أنا»...
- وفي مدينتي المفقودة في الزمان والمكان يقولون أيضًا «من آمنك لم تخونه ولو كنت خاين».. طب نفسًا وقر عينًا فإنك ضيفي وبينني وبينك من زمان خبز وملح وحديث وموانسة؛ فأنت في عهدي وفي ذمتي .. كن آمنًا ولا تخف مني شيئًا... انقضى ذلك الزمان وولى..

استقر الصمت المُحرَّج كجدارٍ سميك بيننا للحظات، ثم نقب فيه ثغرةً بقوله:

- أَلَمْ أخطر لك ببال طوال تلك السنوات؟
- بلى.. كنت أتذكرك أحيانًا.. ليس بحب ولا شوق ولا مودة ولا حنين.. كنت أستعيد بهلع ذكرى أيام العذاب ولياليها التين فرضتهما عليّ... الله لا يعيدها..

بابتسامة حزينة قال:

- الله يسامحك.. ولكنني أفهم موقفك.. دعنا من الماضي بحلوه ومُره.. لقد أرسلت لك مراسلي الليلي وطاف الأرض سبع مرات حتى وجدك لأنني أريد أن أحكي وأنت الوحيد الذي سيفهم ما أقوله..

- أشكرك على هذا الشرف الذي لم أطلبه ولا أدعيه ولا أرغب فيه... ولكن حيث إنني هنا فافتفضل بالحديث..

منذ الليلة التي فارقتك فيها تملكني جنون الفكرة الثابتة. لم يُعد لي في الدنيا من هم ولا شاغل إلا أن أجد بلسماً أو ترياقاً يساعد روحي على العودة إلى مكانها الخاوي في صدري. في سعيي المحموم وبحثي اليأس أخذت أتقلب في الأرض من الهند إلى السند إلى بلاد تتركب الأفيال لبلاد الفرنجة والغال، وصلت إلى أرض يأجوج ومأجوج وراء السور الكبير، صعدت لقمة إفرست وجبل قاف ونزلت لقاع أخاديد بلاد واق الواق، سبحت في مياه المحيط الهادي والبحر الكاريبي وشربت من مشاهير الأنهار كسيحون وجيحون والماجدالينا والميسيسيبي والأمازون، زحفت على ركبتَيَّ إلى أكواخ الزهاد والصوفية، وسرت على الصخر حافياً صوب أديرة النصارى والمعابد البوذية، دخلت عيادات الأطباء والمراكز الطبية، تحدثت إلى الفلاسفة والأفاكين والمجان والمجانين والشحاذين والمجاذيب وأصحاب السيمياء وغيرهم كثير...

كان سؤالى واحداً لا يتغير، أما الردود فحدث ولا حرج. من قائل عليك بالعثور على خاتم سليمان الذي يتيح لك تسخير الجان، إلى ناصح بالانغماس في جلسات تحضير الأرواح عسى أن أجد لي روحاً شريفة ضالة تعثر لنفسها على مُستقرٍ في جسدي، إلى مُشير عليّ بأن من فاته وجود الروح لا يجب أن يفوته ثراء الجيب، وأن اكتناز المال دون مجهود أفضل بديل للروح المفقود، إلى من أفتى بأن الحل يقبع في أحضان النساء،

بينما حكم غيره أن ملاذي في الصوم والصلاة ولبس الصوف وترك الدنيا وعمل المعروف، ناهيك عمن قال لي دوماً لا تضع وقتك في دجل الدجالين وابتغاء المستحيل. سلام نفسك في ابنة الراح وافتضاض بكاراة الأقداح..

وطبيعي أن تدرك بفطنتك أنني تشوشت واختلطت عليّ الأمور ولم أعد أعرف لنفسي سائلاً من راس ولم أحقق من الهدف شيئاً. لم تكن المشكلة هي قلة الحلول وإنما كثرتها وتعددتها وتناقضها وتضاربها، يضاف إلى ذلك يقيني الراسخ أنني - كما قال لي ناسك هندوسي - مولود تحت نجم نحس، وأنني يائس متعوس ولو عُلق على رأسي وبابي بدل الفانوس ألف ومائة فانوس....

المهم، بعد مصادفات غريبة وترتيبات عجيبة يطول شرحها، وليس هذا محلها أو مقامها، وجدت نفسي في حضرة واحد من حكماء الزمان. حكيت له حكايتي وعرضت عليه مظلمتي فضحك وقال:

- المشكلة ليست في نجم سعدك ولا نحسك، المشكلة في غبائك وقصر نظرك. تبحث يا أخيب الخائنين عن علاج للنتيجة، وتتعامى عن علاج السبب!! فقدان روحك ليس إلا نتيجة لخطأ وقع فيه أطباء مدينة النحاس، وهذا أمر مفروغ منه. هذا الخطأ تمخض عن نتيجة شنعاء، هي الحكم عليك بالإعدام مدى الحياة بدلاً من السجن مدى الحياة!! في شرع من تستحق أي جريمة مهما عظمت مثل هذا الحكم الجائر؟ وأنا أعرف أن قوم مدينة النحاس - على الرغم من جبروتهم وتجبرهم - قوم يحترمون القانون ولو على أعناقهم. وعندهم قانون جديد اسمه «قانون منع العقوبات

القاسية أو المهينة أو اللا إنسانية» ينطبق تمام الانطباق على حالتك. القضية كسبانية من دون أدنى شك. أعطني كل المعلومات حتى أعد لك ملفاً كاملاً نرفع به دعوى أمام المحكمة العليا التي ستمنحك تعويضاً يقدر بالملايين وستفرض على العلماء أن يشتغلوا ليل نهار؛ حتى يجدوا حلاً لموضوع الروح التي رفضها جسدك بسبب تقصيرهم وسوء تقديرهم. عن نفسي أنا لن أغالي عليك في الأتعاب، وإنما سأكتفي بنسبة ثلاثين في المائة من قيمة التعويض. أقسم لك بغلاوتك عندي يا غالي إنني عادة آخذ أكثر من هذا بكثير، ولكن ما حيلتي في قلبي الرقيق الذي حزن على ما أصابك، وأجبرني أن أعرض عليك هذا السعر المهادود؟ ما قولك؟

ترددت في قبول ذلك الحل على الرغم من أنه يضيء لي نوراً خافتاً في نهاية الممر الذي أنهكني ظلامه. كان السبب الأساسي في تردي هو لايمان المغلظة التي حلفتها بالله ثلاثاً ألا تطأ قدمي أرض مدينة النحاس مرة أخرى طيلة ما تبقى من حياتي الميتة عديمة الروح. قال بهدوء:

- صُم ثلاثين يوماً وأطعم الفقير والعاني والأسير وابن السبيل كفارةً عن حثك باليمين، ولكن لا تضيع القناطر المقلطرة من الأوراق الخضراء وكذلك فرصة العلاج التي تنتظرك بكلمة واحدة من القاضي..

عبثاً حاولت أن أقنعه أنني أعرف منه بأهل مدينة النحاس، وأنا لن نكسب منهم دانقاً ولا سنتاً ولا سحتوتاً ليس فقط بسبب نحس طالعي وسوء حظي وشؤم طائري؛ ولكن لأنهم أكبر بلاوي الزمان، لقد قال لي

إبليس بنفسه في أحد لقاءاتنا العديدة إنه لا يملك أن يجاريهم في الخبث واللؤم والدهاء، وإنه لو كان يعرف عنهم شيئاً في ذلك اليوم البعيد لكان قد سجد لآدم ألف مرة تبجيلاً لقدر أحفاده الذين جعلوا منه ومن أعوانه الشياطين؛ تحسيداً للبراءة، ورمزاً للطهر، وأنوذجاً لسلامة الطوية.

جف ريقى وتشقق لساني من كثرة ما تكلمت محاولاً أن أثني عن عزمه، لكن بريق نسبة الثلاثين بالمائة من زكائب الأموال التي حلم بها (وفوقه إيمانه الأخرق بسيادة قانون مدينة النحاس وخضوع أهلها له في كل الظروف) أزاغ بصره وأعمى بصيرته وأصم آذانه عن كلامي وحكمتي التي اكتسبتها بتجارب مريرة من حياتي في المدينة وتعاملي مع أهلها، وقال لي في نهاية الحديث:

— إن كانت القضية كسبانية كما أثق، فسنقضي بقية حياتنا في رغد وبلهنية؛ بفضل عملي وذكائي وجهدي، وإذا خسرناها فلن يضرك ذلك بشيء، وأنا الذي سأضيع وقتي وعرقى...

استسلمت على الرغم من تشاؤمي؛ وسلمته كل الأوراق والأحكام والوثائق والمستندات والمستخرجات الرسمية، وعدت معه إلى مدينة النحاس.

سبق وأن قلت لك إن أهل تلك المدينة قوم لا يصدق معهم الظن إلا إذا كان سوءاً. بمجرد تقديمنا الأوراق ورفع الدعوى أيقنت أن كل مخاوفي كانت في محلها. علمت أن واحداً من شياطينهم كان قد توقع أن أعود إليهم مطالباً بالتعويض والعلاج ورد الروح فما كان منه إلا أن أمسك بنص المرسوم الذي أقر عمليات استئصال الروح للسجناء؛ توفيراً للنفقات،

وأضاف إليه حاشية بخط منمنم لا يكاد يُرى تقول ما نصه:
 «أثبتت الاختبارات العملية والدراسات النظرية والبحوث الإمريقية أن العملية آمنة ومضمونة النجاح إلا في حالات شديدة الندرة لا يُعتد بها إحصائيًا قد يحدث فيها - لأسباب مجهولة لا تزال قيد البحث والنظر والتحليل - أن يرفض الجسد عودة الروح إليه. وبموجب أحكام هذا المرسوم، على السلطات المختصة أن تتحسب قدر الإمكان، وعلى أساس أحدث المعلومات العلمية المتوافرة، وفي حدود الموارد المالية المتاحة، لمثل هذا الاحتمال البعيد بما في ذلك إمكانية دفع التعويض و/أو القيام بتجارب إضافية لدرء الخطر، وذلك في خلال فترة لا تتجاوز واحدًا وعشرين يومًا من تاريخ ثبوت رفض الروح وتسجيله في الأوراق الرسمية. وبعد تلك الفترة؛ تكون جميع المطالبات بما ورد أعلاه أو بعضه كليًا أو جزئيًا باطلة ولاغية وغير ذات أساس ومن غير ذي صفة؛ حيث إن اختفاء الروح - إن عمدًا أو عرضًا أو عن غير قصد - يؤدي على أساس ما هو معلوم من القانون بالضرورة إلى انعدام الأهلية وانتفاء الشخصية القانونية، وعلى المتضرر اللجوء إلى القضاء الذي سيحكم بسقوط الدعوى وإلزامه بجميع المصاريف».

والعارف يا صديقي لا يُعرَف؛ وبالتالي لا حاجة لأن أخبرك أنهم (كأمة تقوم على احترام القوانين) قد زوّروا تاريخ التعديل بحيث أصبح سابقًا على عمليتي بأربع وعشرين ساعة؛ حتى يريحوا دماغهم من الدخول في متاهة الأثر الرجعي، ولا جريمة ولا عقوبة بلا نص وغيرها من المواويل والحواديت التي يخرجون بها مثل الشعرة من العجين من أي مأزق أو مغرّز مهما بلغت صعوبته..

عندما جلسنا أمام منصة القاضي، كنت سعيداً بأول مرة أدخل فيها قاعة محكمة من دون أن أكون في القفص. وكان حكيم الزمان منفوشاً ومنفوخاً وواثقاً من النصر. وعندما بدأ القاضي يتلو نص القانون ورفض على أساسه الدعوى جملةً وتفصيلاً، وشكلاً ومضموناً، والزمن بسداد التكاليف، أخذ حكيم الغبراء ينكمش ويتضاءل حتى تبخر واختفى تاركاً إياي في حيص بيص أضرب كفاً على كف وأقول:

- سلمت أمري لله منكم يا أهل مدينة النحاس؛ إن تصدّيت للفران الحسيسة التي غزت داري واحتلت أرضي والتهمت طعامي دون وجه حق، اتهمتموني بالوحشية والهمجية وعدم احترام القانون، وإن لجأت إلى القانون عدلتموه وزورتموه وفصلتموه على مقاسكم تفصيلاً؛ حتى أخرج من المولد بلا حمص وقفاي يقمر عيش. حسبي الله ونعم الوكيل فيكم يا أولاد الكلاب...

حدوتة ذات الدواهي أم الحلول

عندما استرحمت القاضي متوسلاً إليه أن يسمح لي بدفع تكاليف القضية بالتقسيط المريح؛ لأنني غريب فقير قال لي بصرامة:

- كان يجب أن تفكر في هذا قبل أن تفترى على مدينتنا وسلطاتها كذباً، وتضيع وقت المحكمة الموقرة في قضية واهية لا معنى ولا أساس لها. طلبك مرفوض، وعليك أن تدفع الآن وبالكامل وعلى داير مليم، وإن أطلت في الحديث وأكثرت الإلحاح فسأوجه لك تهمة إهانة المحكمة وازدراءها، وسأفرض عليك غرامة باهظة تعلمك درساً في الأخلاق والاحترام وتجعل منك عبرةً لأمثالك من نفايات الشواطئ وحثالة البشر.. تأتون إلينا لتأكلوا طعامنا، وتكسبوا من العمل عندنا، ويربو لحم أكتافكم من خيرنا، ثم يغريكم عدل قانوننا واحترامنا الراسخ له فيلعب الطمع براءوسكم، ويدفعكم إلى محاولة استغلالنا وابتزازنا وأكل أموالنا بالباطل، وتطلبون التعويضات الباهظة عن ظلم لم يقع وعسف ليس من شيمنا ولا أخلاقنا ولا من مبادئ آبائنا المؤسسين.. كلمة إضافية واحدة وسأخرب بيتك.. فهمت؟

جثوت على ركبتيّ وقبّلت الأرض بين يديه ثلاثاً وقلت:

- عفوك ورضاك يا سيدي القاضي. الآن حصحص الحق وتبين لي خطئي وجرمي، تسمحون لي أن أطأ أرضكم الكريمة وأن أستهلك أكسجينها النقي ثم تسول لي نفسي الأمانة بالسوء أن أتطاول على مقامكم وأطلب تعويضاً عن فقد شيء تافه عديم النفع، كبير الضرر كروحي الضائعة.. سأدفع ما تأمر به يا مولاي وأغور من وجهكم الكريم ولن تتأذى عينكم النبيلة بالوقوع على سحتي البغيضة بعد يومنا هذا أبداً، والله على ما أقول شهيد...

وقفت أمام خزانة المحكمة ودفعت صاغراً. خرجت من الباب الكبير مهزوماً ومفلساً. كل ما أمتلكه من حطام الدنيا ملفوف في صرة صغيرة أحملها على كتفي، وليس فيها ما يصلح للبيع ولا للرهن حتى أجد ما أسد به جوعي. أدركت لحظتها أن لم يتبق في جيبي إلا ثمن تذكرة أتوبيس. في مدينة النحاس تعريفه المواصلات موحدة؛ المسافة بلا أهمية، إن قطعت خطوة واحدة أو عشرات الأميال تدفع الثمن ذاته. الأمر المهم الوحيد أن تكون لك وجهة تقصدها. إلى أين أذهب الآن؟ إلى «ذات الدواهي أم الحلول» طبعاً. وهل هناك غيرها؟

امرأة عجوز تعيش بطولها في واحدة من أجمل شقق مدينة النحاس. لا يداني طيبة قلبها إلا سلاطة لسانها الذي يماثل كراباجاً سودانياً منقوعاً في الزيت تتدلى من أطرافه قطع الرصاص. كانت صديقتي في ذلك الزمن البعيد قبل أن تعبس الدنيا في وجهي وتنهال على رأسي بالبقايب المصرية

والمراكيب المغربية والشباشب الزنوبة والخدوجة وأحذية أديداس وبيير كاردان. كلما خنقتني الوحدة كنت أذهب إليها لنقسم الغلب نصفين، ويطمئن كل واحد منا أنه ليس في الهم وحده..

في ساعات الرضا والصفاء كنت أدللها باسم «أم الحلول» لذكائها ومهارتها وتفننها في إيجاد المخارج من أي مغرز أو مشكل مهما استعصى، ولجعبتها التي لا تنفذ من أساليب التحايل على المعاش وتوفر البهجة والسعادة مهما خلا من النقود كيسها. ولأنها كانت لا تبسم للرغيف السخن، وأحياناً لما يقوم عليها لسانها كانت تطلقه كالمدفع الرشاش على التعيس الذي يرميه قدره في طريقه وهي معتكرة المزاج، كنت أسميها في سري «ذات الدواهي» دون أن أجروء على مكاشفتها. يمثل هذه الوقاحة؛ خوفاً مما يمكن أن تفعله بي إن عرفت..

على الرغم من صداقتنا، كانت تتهمني دوماً وظلماً بأنني مسموم النفس، وخبير عالمي بلا منافس في قصف عمر النباتات. كانت تقسم أن واحدة من نباتات زيتها الكثيرة تموت من فورها ومن دون أي تفسير كلما خلعت طاقتي على باب دارها. ومع ذلك كانت ترحب بي من قلبها في أي وقت أطرق فيه الباب..

- أين كنت يا ابن الكلب يا سافل يا غادر يا خائن العيش والملح؟
- لم أكن أتوقع كل هذه الحفاوة والترحاب والاستقبال الحار..
- أصبحت أعيش في غابة مدارية منذ اخفائك الغامض.. لم تمت واحدة من نباتاتي ولا أشجاري... كلما دخلت غرفة مسلحة بالسيف والبلطة لأشق لنفسي طريقاً بين الأغصان الكثيفة المتشابكة، كنت أسأل روعي: أين ذهب ذلك النغل وحرمني من

- نَفْسَه المسموم وتركني تحت رحمة الأشجار التي لا تكف عن النمو؟
- ولماذا لم تتخلصي منها أو تهدها لأحد الجيران أو حتى ترمي بها في الزبالة؟
- أجنون أنت أم ملحوس العقل؟ أنا لا أقتل روحًا ولا أهدي حيًا خالداً إلى أموات زائلين..
- ليت أطباء مدينتك كانوا مثلك..
- بدأنا في التخاريف؟ الدنيا برد.. ادخل.. ساعد لك فنجاناً من الكاكاو الساخن يرم عظامك.. اسبقني إلى غرفة الجلوس.. وهناك ستحكي لي ما حدث..

- رشف الكاكاو الدسم متلذذاً، وأخذت أقص عليها باختصار مفيد كل ما لحق بي في السنوات الطوال التي انقضت من دون لقاء. أصغت باهتمام من دون مقاطعة حتى أعلمتها بفشل القضية وإفلاسي وضياح الطريق من قدمي. قالت:
- يا خيبتك الثقيلة!! أقيت بنفسك في برائن الساقط واللاقط وقابض الأرواح؛ منتظراً أن تلقي عليك الحداة بالكتايت الصفراء؟ ألا تعرف يا جاهل أن من ظلم لا يعدل؟ تروح للجلاد بقدميك آملاً أن يزيل بنفسه آثار سوطه من ظهره الممزق؟ كان يجب أن تسألني النصيح والمشورة.. ما علينا.. سأستضيفك في منزلي والطعام الذي يكفي واحداً يقتسمه اثنان ولا يجوع أحدهما.. ولكن الذي أوله شرط آخره نور؛ فيجب أن تعرف أن الضيف

مثل السمك بعد ثلاثة أيام تفوح رائحته ويجب التخلص منه...
قم الآن فاستحم؛ وغيّر ملابسك وتعال؛ لنجلس أمام بلورتي
السحرية ونجد لمصيتك الكبيرة حلاً..

أطفأت الأنوار، وأطلقت البخور، وجلست أمام الشاشة المستطيلة
تتمتم:

- أيتها العرافة المقدسة احضري مجلسنا. يا من كشفت عنك الحجب
وأزيعت الأستار، بحق كل الجن المتعلمين، بحق شمشورث
وماكنتوش ومايكروس وسوفتوس وجرجريس وباقي أسلافك
الكرام في وادي عبقر ووادي السيليكون؛ أضيئي لنا الطريق يا
جوجل يا ابنة جوجلين، وردي على خائب الرجا هذا، لا خاب
من قصدك بحق أبيك وجدك..

ضغطت على الزر فتلاأت الأنوار وجاء الرد مكتوباً:

(نقلًا عن المجلة الشهرية لاتحاد أطباء مدينة النحاس وعلمائها)

«جميع الحقوق محفوظة ©»

«لا توجد في تاريخ البشرية المسجل إلا حالة واحدة رفض فيها الجسم
إعادة زرع الروح فيه. وقد حدثت هذه الحالة الفريدة في أحد سجون
مدينة النحاس منذ عدة سنوات، واختفى صاحبها من دون أن يترك وراءه
أثرًا. وحتى بافتراض وجوده فلا يمكن بالدراسة الموضوعية ولا بالأعمال

السفلية ولا بالمعرفة الجوانية أن يتم التوصل إلى نتائج موثوق فيها علمياً على أساس حالة شاذة واحدة قد لا تكون في حقيقتها إلا الاستثناء الذي يثبت القاعدة».

ثم قالت جوجل بنت جوجلين بخط متلعثم يرتجف من الخجل:
 - في ضوء عجزني عن توفير الرد، سأحيلك الآن إلى المنتدى
 الرحيب الذي تحمل فيه المردة والعصافير الأسئلة والأجوبة
 والردود بين سكان القطب والاستواء وما بينهما. ادخلي غرفة
 الدردشة برجلك اليمنى؛ فعسى أن تجدي فيها ما تطلبين...

التفتت إلى أم الحلول متسائلة:

- هل ندخل الغرفة المسحورة باسمي أم باسمك؟ لعل الأفضل أن
 تحكي حكايتك وتطرح أسئلتك بنفسك بدلاً من أن أنقل عنك
 للقوم ما تريد..
 - لا أعرف شيئاً عن هذه الغرفة.. كيف أدخل وكيف أستاذن
 وكيف ألقى بالسلام على الحضور؟ هل يليق أن أدخلها بيد فارغة
 دون هدية تليق بالمقام؟ وهل من المحتمل أن ألقى فيها غولة
 تفرقش لحمي قبل عظامي، أو عفريتاً غاضباً يلقي بي في بحر
 الظلمات؟
 - لا تخف شيئاً... سأكون بجوارك بعصاي السحرية..

دخلنا الغرفة المزدهمة. كل من فيها يتحدثون في الوقت ذاته. قدمت
 نفسي لهم وقلت إنني صاحب الحالة الفريدة والشاذة والوحيدة التي ورد
 ذكرها في المجلة الشهرية. ساد الصمت لثانية واحدة، ثم تلاه انفجار من
 الكلمات والأسئلة:

- «أين كنت طوال تلك الفترة؟»
- «لماذا لم تأت إلينا من قبل؟»
- «مرحبًا بك في منتدى «رابطة أصدقاء مفقود الروح».. انتظرناك طويلاً لنناقشك في الحالة..»
- «كم عمرك الآن؟»
- «هل أنت صادق فيما تقول: أم أن الأمر كله أكذوبة الهدف منها أن تحصل على تعويض هائل الحجم كما ذكرت الصحف؟»
- «هل تأثر وزنك أو شهيتك أو طاقتك الجنسية باختفاء الروح؟»

زعقت أم الحلول بحروف كبيرة بالبنط العريض:

«صمتًا.. هو وحده الذي يجب أن يطرح الأسئلة.. اسمعوه..»

توقف طوفان الحروف المتدفقة على الشاشة واتجهت إلى كل الأنظار تنتظر سؤالي. وضعت البرطمان الصغير الذي يحوي روحي على بعد ست بوصات من الكاميرا؛ كما يقضي كتاب التعليمات. حمل الجني صورة الإناء الزجاجي إلى مشارق الأرض ومغاربها فرآها الجميع في اللحظة ذاتها على الرغم من فوارق التوقيت. قلت:

- هذا إثباتي ودليل صدق ما أقول... وآلآن دبّروني يا حكماء.. ما العمل؟

انفجارًا آخر من الأصوات المكتوبة:

- «اخترعت دواءً جديدًا يكبح جهاز المناعة، ويضمن ألا يرفض الجسم أي عضو جديد لكنه باهظ الثمن، ولم توافق عليه بعد»

- الإدارة الفيدرالية للأغذية و الأدوية..»
- «لو قبلت أن أجري عليك بعض التجارب كجزء من رسالتي للدكتوراه عن الوزن الجزيئي للروح، فسيسعدني أن أعالجك بالمجان..»
- «عيادتي تتعامل حصراً مع شركة الدرع الزرقاء للتأمين الصحي، إن كانت عندك بوليصة منها فشرفنا تجد ما يسرك..»
- «لماذا لا تنسى هذه الحكاية بكاملها، وتبع لي روحك حتى أدرّسها في محاضرات التشريح؟ الثمن مغر جداً وقابل للتفاوض والزيادة.. ورائي شركة كبرى بموارد لا تنفذ مستعدة أن تغدق عليك ما تريد حتى ترضى..»
- «عيب كبير وخيانة لا تغتفر أن يحاول أحد أعضاء الرابطة التي انتظرت ظهور مفقود الروح لسنوات أن يحتكره ولو لأغراض علمية نبيلة.. وفقاً لقانون منع الاحتكار؛ أقترح أن نطرح روحه للبيع بالمزاد العلني في إطار من الشفافية التامة، ووفقاً لكراسة مواصفات سليمة من الناحية القانونية.. أفتح باب المزايدة بمائة كيس..»
- «عليّ بمائة وعشرين..»
- **روحي ليست للبيع...**
- «عليّ بمائتين وخمسين..»
- **قلت: روحي ليست للبيع...**

وتعالت الأصوات يا صديقي من كل بلاد الدنيا تزايد على بعضها حتى وصل ثمن روحي - غير المعروضة للبيع أصلاً - إلى ألفٍ وثمانمائة

وسبعة وعشرين كيّسا، وكان يمكن للأمر أن يستمر لساعات لولا ذلك الصوت الساحر الأخاذ الذي أسكت كل النخاسين بقوله:

- أخزاكم الله يا أشباه العلماء ولا علماء.. الروح لا تباع ولا تشتري.. نسيتم قسم أبقرات، ولم يعد يهتمكم إلا مجد الدنيا وجائزة نوبل ولو على حساب هذا الشقي التعيس.. انصرفوا الآن وإلا فسيذكركم غضبي الماحق.. انصرفوا.. أما أنت -يا أيها الضال المضلل - فعليك أن تفهم أن لن ينفعك علم العلماء ولا طب الأطباء ولا فكر الفلاسفة.. الروح لا تفنى ولا تستحدث ولا تخلق من عدم.. ابحث عن ترياق لمشكلة روحك بين أشجار الغابات... ووراء الباب الكبير تحت الأوامر الثلاثة.. ابحث عنه على شواطئ غزلان الشعر.. وفي أعين الأطفال المولودين من الرحم المستحيل.. ولا تغفل المرايا الصادقة التي تكشف بكل حياد حقيقة الجمال والقيح فرما وجدت جزءاً منه هناك.. وطبعاً لا تنسَ شلالات المياه الزرقاء الصافية الضارب لونها إلى الخضرة.. وعليك (حين تغلب الظلمة) بالصبر والصمت...

حدوتة أهل الله الكرام

عانقتني أم الحلول على باب دارها، وعلقت على ظهري حقيبة صغيرة الحجم، ثقيلة الوزن، قائلة بين القبلات:

- في هذه الحقيبة ما قدرني الله عليه، أربع وعشرون بيضة مسلوقة، وستة أرغفة وكيسان من اللحم المقدد، وأقراص لنزلات البرد وسفوف للمشاكل المعوية وشراب للسعال، وكبريت لتشعل به نارًا تستدفئ بها، وبطارية تبدد عنك بعض ظلام الليل، ووضعت لك أيضًا زجاجة نبيد ليس للمزاج ولا الطرب ولا للسهولة، وإنما لتدفعك بجرعة أو جرعتين إذا اشتد عليك الزمهرير، وهاك نصف ما في كيسي من مال لعله يفيدك وقت الزنقة..

دمعت عيناوي تأثرًا وامتنانًا. شكرت لها صنيعها بحضنٍ قوي؛ ثم قلت بحيرة:

- ولكن من أين أبدأ؟ دبريني يا حكيمة..

- لا تثق في عقلك المضطرب، ولا في قلبك المهزوز.. ضع ثقتك في قدميك.. اترك لهما قيادك وأنا متأكدة أنهما سيهديانك إلى سواء السبيل..

تمت:

- اللهم آمين، اكفني شرور الطريق الكثيرة، وأطعمني خيره إن كان فيه خير..

قبلتها وخرجت قائلاً:

- أطلب من الله وليس بالكثير عليه أن يجعل من نصيبي لقاءك مرة أخرى؛ لأرد لك بعض الجميل الذي طوّقت به عنقي...
خرجت من بيتها والسماء تنذر بماء كثير وشر مستطير..

لما وصلت إلى قلب الغابة كان الشجر العاري صابراً في انتظار الربيع، والصمت شديد الثقل على طيلة الأذن. شممت رائحة العاصفة، وسمعت دمدمة بداياتها. تمايلت الأغصان مكشوفة العورة مع هبات الريح ومن دون مقدمات نزلت ندف الثلج، رقيقة هفهافة في البداية، ثم أخذت تتكاثر في هطولها حتى حجبت عني الرؤية، وأيقنت بنهاية الرحلة حتى قبل أن تبدأ.. نازعتني نفسي لأن أرتمي على الأرض ولا أحرك ساكناً؛ حتى يأتيني الملك بالراحة المنشودة.. جلست تحت شجرة وقلت لها:

- امنحيني أمل البعث الذي يجري في عروfk المتخشبة.. أو فساعديني أن أقبل المحتوم...

قبل أن أتم جملتي رأيت على البعد نوراً خافتاً. قمت كالمجنون أجري نحوه، وكأنني لم أؤمن الموت وأستسلم لدعوته قبل لحظات.

عدوت والثلج يعمي بصري، ويدخل من ياقتي؛ فيتجمد من برودته
ظهري وصدري. مرت فترة لا أعرف طولها، ثم وجدت نفسي أمام
باب خشبي كبير نُقش فوقه بخط جميل:
«سَلُوا تُعْطُوا» «اطلبوا تجدوا» «اقرعوا يُفتح لكم»

استبشرت عندما تذكرت قولاً غامضاً عن باب يقبع تحت أوامر ثلاثة.
دققت الباب بكل ذعري وقبضتي، والبرد الذي يقرش عظامي:

- من ؟
- عابر سبيل غريب ينشد كرمكم..
- ماذا تريد يا غريب ؟
- أقضي سوادَّ الليل عندكم، وعند الفجر أستأنف سعيي..
- هل أنت هارب من جريمة، أو فيما تسعى إليه ما يشين ؟
- لا يا سيدي...

انفتح الباب فوجدت أمامي رهطاً من الرهبان يرتدون جلابيب
بنية فضفاضة، ويلفون خصورهم بحبال من الليف الخشن المجدول.
بابتسامة وادعة على وجهه قال كبيرهم:
- على الرحب والسعة يا عابر السبيل...

دخلنا قاعة صامته تتوسطها مائدة خشبية طويلة. الهواء يخاصر لهيب
الشموع ويراقصه؛ فتبادل الأضواء والظلال أماكنها على الجدران في
لوحة لا تنتهي حركتها. جلسنا على المقاعد الخشبية الصلبة، وأمام كل
منا طبق من حساء وشريحة من خبز متقشف:
- الحمد لله على ما أكرمنا به من طعام..

أكلنا ساكتين. لم أرفع رأسي عن طريقي مرة واحدة حتى انتهت الوجبة الفقيرة التي كانت على لساني أشهى من أسمطة السلاطين. ثم تردد صوت هادئ يقول:

- إن كان الغريب يريد أن يحتفظ بسرّه لنفسه، فليس من كرم الضيافة أن ندس أنوفنا فيما لا يعيننا. أما إذا أحب أن يخفف عن قلبه ما يثقله؛ فكلنا آذان صاغية...

ما الذي أدراه أن قلبي مثقل؟ هل وجهي كتاب مفتوح ينم عما يجيش به صدري، و يضطرب به رأسي؟ أم أنه من أهل الله المكشوفة عنهم الحجب؟ نظرت إليه بابتسامة خجلى فسألني:

- من أين يا غريب؟
- من مدينة النحاس على مسيرة سبع ساعات من هنا..
- لا هيتك ولا لكنتك تدل على ذلك، ولكنها مدينة للغرباء فلا عجب...

- صدقت قولاً يا سيدي .. أنا في الأصل من مدينة بعيدة كلما كبر حجمها قل شأنها وضاعت هيئتها؛ حتى أصبحت أخجل من ذكر اسمها...

- وما الذي أتى بك إلى منطقتنا؟
- أبحث عن شيء لا أعرف حتى إن كان له وجود...
- من يسأل لا يتوه..
- أبحث عن بلسم أو ترياق يعيد الروح إلى مكانها...

نظر إليّ الراهب نظرة فاحصة مملوءة بالتساؤلات؛ ثم زاغت عيناه وبدا وكأنه لا يراني وقال بصوت خفيض:

- لا شيء يعيد الروح إلى مكانها إلا عودتها إلى مكانها...

استغلق عليّ قوله المبهم فنظرت إليه باستفهام. قال:

- لك أن تبقى معنا ما شئت أن تبقى. لن يسألك أحد شيئاً، ولن يُفرض عليك ما لا ترضى... تعال أريك صومعتك...

قضيت في ديرهم أياماً لا أذكر عددها، ولكنني لن أنسى مهما امتد بي العمر السلام الذي ملأ قلبي خلالها. كنت أستيقظ مع شقشقة الفجر لأذهب إلى الحظيرة أساعد راهباً في حلب الأبقار، أو إلى المطبخ لأعين آخر في طهي طعام الإفطار. بعد تغيير الريق؛ يعود كل واحد منهم إلى قلايته فيقرأ أو يصلي أو يتأمل في خلق الكون، وأجلس أنا وحدي صامتاً لساعات، وسعيداً بصمتي على الرغم من عشقي الشهير للكلام الذي ترى أنه لم يفتر على الرغم من مرور الأعوام. أحياناً كنت أقضي اليوم في الصوبة الزجاجية التي يزرعون فيها الخضروات في غير أوانها؛ أسقيها وأقص أغصانها وأجني الثمار الناضجة لأضعها على مائدة الغداء، بعدها كنت أذهب إلى المكتبة الثرية أقرأ فيها ما لم يخطر لي على بال، وعندما كانت الترانيم العذبة المنبعثة من القلب تتراعى إلى سمعي فجأة وعلى غير انتظار، كنت أشعر أن الثقب الدامي في صدري قد برأ واستعد لاستقبال روحي...

بالتدريج نسيت مسعاي ومبتغاي، وبدا لي وكأنني خلقت لأعيش في ذلك المكان الطاهر، ولم يعد موضوع الترياق يشغل بالي حتى جاء يوم دخل عليّ فيه كبيرهم بابتسامته الطيبة وصوته الحنون:

- أنت تعرف يا بني أنني طَلّقت الدنيا وتركتها بما فيها وراء ظهري
لهدف وحيد هو أن أحقق خلاص روحي، وأساعد الآخرين
الراغبين في تحقيق الهدف ذاته..

- ونعم الاختيار يا أبتاه..

- لا أريد أن أبدو فضوليًا أو متطفلًا أو بليد الإحساس، ولك من
دون أي حرج أو زعل أن ترفض طلبي، لكنني أريد حقًا أن أرى
روحك السجينة..

أخرجت الوعاء الزجاجي من صرتي المهلهلة من دون كلام، وقدمته
له. تأمله للحظات ثم قال:

- ليست كما تخيلتها.. كنت أتصورها جوهرًا نوريًا صافيًا...
قلت بضحكة مفتعلة:

- لعلها فسدت من طول قبوعها في هذا الإناء الحقير...

ابتسم محرجًا وقال بتردد وتؤدة من يدقق في اختيار الكلام؛ مخافة سوء
الفهم أو التسبب في جرح غير مقصود:

- اسمع يا ولدي.. يعلم الله أن لم تثقل مئونتك علينا، ولا ضاقت
صدورنا بضيافتك.. أنت رجل مبروك، قدمك سعد، درت
أبقارنا ألبانها، وزادت ثمار حقولنا بحضورك..

قاطعته:

- لم أسمع مثل هذا القول عني قبل هذا اليوم أبدًا، طول عمري
متهم بأنني متعوس كثير النحس؛ فأشكرك على قولك الكريم،
وأطلب إليك ألا تتردد فيما تريد قوله مهما يكن، وستجدني إن

شاء الله من الصابرين..

- واجبي يحتم عليّ أن أصدقك القول.. لن تجد ما تبحث عنه عندنا.. وعلى الرغم من محبتي لك وسعادتي برفقتك، فإنني أرى أن خلاص روحك أهم من كل ما عداه.. ولا تنس أن الصوت الذي أنهى مزاد النخاسة العلني في غرفة الدردشة تحدث عن الباب الكبير والغابات والشواطئ، وها أنت قد أتيت إلى الغابة وطرقت الباب ولم تجد شيئاً.. على مسيرة نصف يوم من هنا في اتجاه الشرق، توجد جزيرة طويلة، أقترح عليك أن تسير على شواطئها، علك واجد فيها ما طال انتظارك له وتوقك إليه.. أنا أعرف أنك لا تحب البحر وتهابه، وأنه يشوّشك ويثير خلطك وحيرتك، ولكن البحر - وعلى الرغم من جبروته المخيف - معطاء كبير القلب، وربما أنعم عليك بين يوم وآخر بسمكة أو قوقعة ترد عنك وحش الجوع...

تساءلت مذهولاً:

- كيف عرفت كل ذلك عني؟

رد بابتسامة مأكرة:

- من يسأل لا يتوه.. وعند ابنة جوجلين الخبر اليقين...

حدوتة غزالة الأشعار

وقف الرهبان جميعاً على الباب الكبير يودعونني بالتلويح والأمنيات
الطيبة، وقال لي كبيرهم وهو يشد على يدي عمودة:
- أبوابنا وأحضاننا مفتوحة لك على الدوام.. عد لزيارتنا بعد أن
توفّق لما تريد..

وضعت الحقيبة الصغيرة على ظهري، وخرجت أرْتَجِفُ حزناً على
فراق المكان الذي وجدت فيه راحة حقيقية وطمأنينة لم أعرف مثلها من
قبل.. أغلقت الباب ويَمَّتْ صوب الشرق..

من ضمن اللعنات الكثيرة التي خُصت بها مدينة النحاس والمناطق
المحيطة بها، جوها الشرس وحاله المقلوب، كلما ازدادت الشمس سطوعاً
وزرقة السماء صفاءً؛ ازداد الصقيع وحشيةً وكأن الشمس لا تشع نوراً،
وإنما تبخّ على الدنيا ثلجاً وجليداً.. سرت والبرد ينهش عظامي، وأخذت
أتساءل متوجّساً عما سيصينني عندما أجِدُ نفسي على شاطئ المحيط من
دون ستر ولا وقاء من أنياب الريح المفترسة..

بعد لأي وتورم في القدمين، وصلت إلى الشاطئ المهجور. المياه رمادية كالحة والأمواج كالجبال. الهواء يصفر في أذني، ويثير حبات الرمل الأسود؛ فيضطرني للسير مغمض العينين. تملكني تشاؤم عميق وسألت بأعلى صوتي:

- كيف لهذه الصحراء المائية القفر اليباب، أن تحمل سر عودة روحي إلي؟ لماذا سمعت يا أبانا كلام ذلك المجهول وصدقته وطردتني من كرم بيتك؟ ولماذا رضخت أنا لأمرك من دون أدنى مقاومة؟ لماذا؟ لماذا؟

لم يرد علي إلا صدى صوتي المهتم مبعر المقاطع والأجزاء؛ فانخرطت في بكاء مرير، وركبني انقباض، وارتميت على الأرض أعول وألطم وأحشو التراب على رأسي، ولولا أننا كنا في أوان القر والصر لشققت ثيابي من يأسي حتى ذيلها، وأخذت أردد كالمعتوه:

- ليت هذا لم يكن .. وما حصل هذا إلا من قلة عقلي وعدم تدبيري...

بعد لحظات سمعت هاتفًا يهمس في أذني أن ابك ما شئت أن تبكي؛ حتى تنفلق ولن يعود عليك ذلك بفائدة، الأجدرك - إن أردت من وضعك المهيب مخربًا - أن تضع همك في العمل وتبني لنفسك خصًا أو عشة تختمي فيها من غضب الشتاء...

مسحت دموعي واستجمعت همتي وسرت صوب تل صغير في آخر الشاطئ. وجدت في طريقي أخشاب قارب حطمت الأمواج، وألقيت به على البر فجمعتها، والتقطت معها بعض الأغصان وقطع الخيش،

وبدأت في البناء. رفع العمل من معنوياتي، وبعث الجهد البدني بالدفع في جسمي، وبدد قدرًا من القلق الذي تملكني. وقت الغروب، عندما نزلت الشمس الثلجية في مياه المحيط المتجمدة، جلست في عشتي الصغيرة وأشعلت نارًا في حفرة ضحلة حفرتها بآخر ما تبقى في من عزم. سمحت لنفسي ببيضة مسلوقة واحدة وقطعة من الخبز الجاف وشريحة لحم مقدد، تشابه في نسيجها ومذاقها ورائحتها جلد الأحذية القديمة المنهكة. استبد بي بعد الأكل عطش قاتل وأدركت لحظتها أن أم الحلول وأهل الله الكرام قد أعطوني الكثير، ولكنهم نسوا الماء الذي خلّق منه كل شيء حي. ولم أرقبي غديرًا ولا ينبوعًا، أما ماء المحيط اللانهائي فلا تُرجى منه فائدة إلا زيادة جفاف الفم وتشقق سقف الحلق. عاد اليأس الخائق ليطوق بأصابعه عنقي؛ فصرخت من أعماق قلبي:

— إلهي أنت عالمٌ بحالي... فهل من فرّج قريب؟

لم أكد أكمل صرخة لوعتي حتى سمعت جلبة وضجة عظيمة. خرجت من مخبي لأرى الشاطئ وقد امتلأ بخيام منصوبة وقباء مضروبة، ومئات الناس يحملون مشاعل موقدة ويدقون الدفوف، رأيت نيرانًا تضطرم وتدور فوقها أسياخ تحمل خرافًا وعجولاً. سال ريقى من رائحة اللحم المشوي؛ فجريت صوبها مستعدًا أن أريق ماء وجهي متسولاً قطعة مهما صغر حجمها، بل سأقنع - إن ضنوا - بعظمة يرمونها لي كالكلب أمصصها وأنهش ما علق بها من لحم. اقتربت من المأدبة العامرة بروائحها السماوية، فرأيت فتيات ممشوقات لا يرتدين من الثياب إلا ما للعورة يستر، ويرقصن ويتميلن على إيقاع الطبول. أكانت ثمار أجسادهن الشابة أشهى في عيني من الضأن الذي يتصاعد منه الدخان؟ أم كانت النار التي تكويني في تلك اللحظة أكثر ضراوة من الجمر الذي

يتقلب فوقه الخروف؟ زدت من سرعة عدوي حتى حاذيت الشواء؛ باحثاً عن قول أفسر به تطفلي. فاجأني بابتسامة عريضة مضياف وقال:

- أهلاً بك... تفضل معنا..
- شكراً على دعوتك الكريمة، ولكن أستحلفك بالله أن تصدقني القول: من أنتم؟ وماذا تفعلون هنا؟
- نحن أهل الشاطئ.. نأتي هنا كل ليلة لرقص ونغني ونشرب ونأكل ونحتفل بجمال الحياة ثم نختم فرحتنا بسماع الشعر من ابن الغزالة...
- كيف أصبح الجو دافئاً هكذا، وبهذا الشكل المفاجئ؟ لقد كدت أموت برداً من دقائق معدودات...
- لا أعرف عم تتحدث يا صديقي.. الجو على شاطئنا هذا دافئ طول السنة، ولا ينغص علينا صفو حفلاتنا الدائمة أبداً... خذ هذه القطعة اللذيذة من بيت الكلاوي بألف هناء وشفاء، واشرب لك كأساً أو اثنين حتى يروق المزاج ويصفو ويعلو ويكون مستعداً للشعر... نحن نؤمن أن سماع الشعر على بطن خاوية من الكبائر غير المغفورة، كيف لأحد أن يطرب لسحر البيان وهو يفكر في ملء معدته؟ كل واشرب وتأهب لنشوة لم تعرف مثيلها في حياتك...

انضمت إلى الحلقة الكبيرة من الرجال والنساء الجالسين على الرمل الدافئ، وانقضضت على الطبق الذي قدم إلي. أكلت كأنني أكل آخر زادي من الدنيا، وأمامي كأس أنيقة من كريستال بوهيميا، كلما أخذت منه جرعة عاد فامتلاً، قلت لجارتي ضاحكاً من قلبي:

- ألا تنتهي هذه الكأس أبدًا؟ هل أظل أعب منه حتى يغمى عليّ؟
- أمرك عجيب يا ضيفنا، وأسئلتك أعجب.. كيف تجهل أبسط قواعد الدنيا؟ الكأس تنتهي عندما تكفي منه وترتوي وتأمره بالانتهاء..

بعد العشاء الملكي، أتى الموسيقيون بعود جلقي وسيتار هندي وجنك عجمي وسنطور فارسي وجيتار إسباني وناي تيري وقانون مصري وأورج كهربائي، وأخذ قائدهم العود وعرك أذنه وشد أوتاره وأصلح حاله ودوزن وسلطن، ثم هز رأسه فأخذوا في العزف وقام كل الجالسين يرقصون. من دون ترو، شاركهم الرقص ثم حانت مني التفاتة إلى الأجساد اللدنة الرشيقة تشنى في انسيابية وتناسق؛ فخرجت من حركاتي المتخشبة العشوائية. انتحيت جانبًا وأخذت أرقبهم بإعجاب وانسجام وشغف. فجأة توقفت الموسيقى وسمعت الهمسات تتردد متنقلة من فم لأذن:

- لقد وصلا..
- لقد وصلا...
- لقد وصلا...

- رأيت شابًا يلف وسطه بإزار من قماش يجري وبجواره تجري غزالة آية في الرشاقة والجمال. اقتربا من جمعنا السعيد؛ فانفجرت عاصفة من التصفيق. لوح الفتى بيده وانحنى شاكرًا:
- مرحبًا بالغزالة وابنها العظيم..
 - أحنّ أمهات الدنيا معنا..

نزل الفتى على ركبتيه وألصق فمه بشفتي الغزالة، وأخذ يمسح بيده على عنقها بحنو بالغ وهي ترمش بجفونها. استمر في هذه القبلة لزمان لا أدري طال أم قصر، ثم فجأة وقف وسط المجموعة وبدأ في الإنشاد. انتعش ذهني على الرغم من تعبتي والنوم الممسك بتلابيبي. أجمل شعر سمعته أذن بشر يتدفق من فمه بلا توقف وبلا أي مجهود على ما يبدو. استحوذ الصوت السحري على الجالسين، وامتلكهم تمامًا. توقفت الأفواه عن المضغ والكلام والتقبل، وامتنت الخلق عن البلع. ثبتت الأبصار والأسماع على الفتى، وغرق الكل في غيبوبة لذيدة بفعل كلماته الباهرة..

انتهى الفتى من إنشاده؛ فساد صمت مذهول للحظة تلتها آهات الإعجاب وكلمات التقدير وصيحات الطرب حتى أوقفها الشاعر بإشارة من يده قائلاً:

— الهدوء والصمت من فضلكم وإحسانكم يا أصدقاء... أريد أن أنشد قصيدة؛ تحيةً للضيف الجديد الذي شرفنا بحضوره الليلة..

وقف شعر رأسي، واغرورقت عيناى، ولم يكف جسدي عن الارتجاف وأنا أسمعته يروي قصة حياتي من المبتدأ، وما مر بي من نكبات وخطوب ولحظات سعادة حلوة قليلة بإيقاع بديع وكلمات ساحرة. أرهفت سمعي آملاً ومتوقفاً أن تخبرني نهاية القصيدة بمآل سعبي ونتيجة بحثي عن عودة الروح. مادام يعرف كل شيء عن الماضي الذي لم يشهده، فما الذي يمنع أن يعرف المستقبل المجهول؟

لخية أملي المريرة؛ توقف عند لحظة انضمامي لحفلهم البهيج، ولم يزد على ذلك حرفاً. دوى التصفيق وهنأني الحاضرون على الشرف العظيم الذي لم ينل أحدهم مثله. ذهبت إليه وشكرته بحرارة وقلت لنفسى: لا يصح أن أثقل عليه بالأسئلة، والأفضل أن أنتظر فرما أعطاني الرد في يوم آخر. وضعت يدي على كتفه وقلت:

- ليس من العدل أن تعرف حكايتي، ولا أعرف أنا عن قصتك شيئاً..

- هل تصدقني إذ أقول لك إنني أعرف كل الحكايات إلا حكايتي؟ كل ما لديّ تخمين ورجم بالغيب المجهول، لعل أُمي (البيولوجية لا الحقيقية) كانت مرافقة في إحدى مدارس مدينة النحاس، تحالفت عليها الهرمونات المتدفقة في عروقها، وبرامج التلفزيون وأغلفة المجلات؛ فأصابها بسعار جنسي فرقدت على ظهرها وفتحت ساقها لشاب من سنّها، غير مقدرة للعواقب أو مدركة لما يمكن أن يحدث، ثم انتفخت بطنها فأصابها الهلع، وفرت من بيت أهلها إلى الغابة حتى جاءها المخاض فأخرجتني إلى الدنيا، لعلها قررت ساعتها أنها لن تستطيع بحدّثة سنّها وقلة مالها أن ترعى طفلاً لا يملك من أمر نفسه شيئاً. أحياناً أتخيلها وهي تبكي وتنشج بالدموع عندما تركتني بين أشجار الغابة.. كل هذا مجرد تخمين كما قلت لك في مستهل حديثنا.. الأمر الثابت الوحيد هو أن الغزالة (أُمي الحقيقية) وجدتني ملقى على الأرض أكاد أتجمد برداً، وأموت جوعاً فتبتنتني وأرضعتني مع ظبيها الصغيرين وتعهّدتني بالرعاية حتى شببت.. في أحد الأيام التقينا بأصدقاء الشاطئ هؤلاء؛ فانضممنا إليهم وشاركناهم طقوسهم الليلية. كنت حتى تلك اللحظة لا أتقن إلا لغة الغزلان، ولكنها قبلتني

في شفتي - كما رأيته تقبلني الليلة - فانطلق لساني بكلام بشري جميل ذي جرس وإيقاع عرفت بعدها أنه الشعر الذي وقع أهل الشاطئ في غرامه، وجعل مني نجمًا ساطعًا بينهم... أغلب الظن أن أمي الغزالة إنسية سخطها جني غاضب أو عفريت عاشق في هذه الصورة، وإلا فكيف بالله عليك أمكنها أن تنقل بقبلة واحدة إلى لساني كل كلام البشر؟ بدأت كلامك يا ضيفنا بالحديث عن العدل، والآن أجبني: أمن العدل أن أعرف كل حكايات الدنيا إلا حكايتي؟

كنت مأخوذًا بحكايته العجيبة التي لو كتبت بالإبر على آماق البصر؛ لكانت عبرة لمن اعتبر، حتى أنني لم ألحظ تأثره العميق، حتى رأيت يده تتسلل خفية لتمسح الدمعة التي انحدرت رغماً عنه على خده، قال مدارياً حرجه:

- جاوزنا حدود اللياقة في الانعزال عن باقي الضيوف... تعال نعود إليهم، وستتاح لنا فرص أخرى للحديث في ليال آتية... تعال..

لما عدنا كان الحفل في أوج تألقه، قابلونا بالصياح والتهليل وبالأكداح المترعة، وبقينا في سعادة وانشراح حتى أطل علينا نور الصباح...

أخذت الأيام تتألى على المنوال ذاته. النهار مظلم وكئيب وبارد، والليل مشرق ودافئ وبهيج. كل ليلة رقص ومغنى وطرب وأكل

وشراب؛ حتى تهلّ علينا الغزالة وتقبّل ابنها في شفّيته وتدفق منه الأشعار السماوية؛ فيرفرف قلبي سعادةً. لم ينغصّ نشوتي شيءٌ سوى أنني لم أكن أملك ورقاً ولا قلماً ولا جهاز تسجيل ولا ملكة الحفظ. كانت نفسي تذهب حشرات لعجزي عن تدوين هذه الدرر المكنونة والاحتفاظ بها لمن سيأتون بعدي، ولن يصدقوني عندما أحكي الحدوتة وأقول إنني سمعت أجمل أشعار الدنيا من دون أن تكون معي ولو شطرة واحدة منها؛ دليلاً على صدق قولي...

في كل ليلة كانت لي فترة أقضيها وحدي مع ابن الغزالة؛ نتحدث ونشرّق ونغرّب ونسارى بالحكايات الجميلة. بالتدريج لاحظت شرارة تلمع في عينيه واضطراباً يركبه كلما مرت بنا فتاة ذات شعر طويل ورمش كحيل وخذ أسيل ونهد كاعب وخصر نحيل وردف ثقيل. بعد عدة ليال قررت أن احترامي لذكمانه قد طال لأكثر مما ينبغي؛ فسألته مباشرة وبشكل لا يخلو من وقاحة التدخل فيما لا يعنيني:

- أنت تحبها أليس كذلك؟

دارى خجله وارتباكته ثم قال:

- نعم يا صديقي... أذوب فيها عشقاً..

- ولم لا تتحرك؟ فاتحها... قل لها شيئاً... الأفضل أن تنشد فيها واحدة من قصائدك اللؤلؤية.. يحسن طبعاً ألا تنشدها أمام الناس؛ حتى لا تخرجها على الملأ وتشبب بها أمام من يساوي شيئاً ومن لا يساوي.. وبعد أن تسمع كلماتك فأنا كفيل أنها ستخر صريعة غرامك في اللحظة ذاتها.. تحرك يا فتى..

- انظر إليّ يا رحمك الله... كيف لمن كان له وجه كوجهي وجسد كجسدي، أن يحلم بوصال حسناء مثلها؟

- أنت أجمل روح وهي أجمل جسد، ولو كان في الدنيا عدل
لوجب أن تكون أنت لها وتكون هي لك...
- ليتني أملك مثل يقينك.. لكنني لا أملك إلا الانتظار...

بعد أيام وقع أمرٌ عجب أثار استغراب كل حضور الحفل الليلي.
لأول مرة تلعثم وهو يلقي أشعاره، وكأن عنفوان النهر العارم قد فوجئ
باصطدامه بجنادل من الجرانيت الصلب. اختلينا ببعض كعادتنا فقلت له
بنبرة انتصار:

- احلق شاربى ولا أكون الآخر ابن أم الآخر، لو لم تكن قد اعترفت
لها بحبك..

رد لاهثاً مبهور النفس:

- فاتحتها وحدثها وتعطفت فقبلت يدي وعشقي... لكنها طلبت
مهرًا فادحًا لا أظنني بقادر على دفعه..
- الحب لا يقدر بمال.. ادفع ما تطلبه من دون تردد ولا تفكير..
لا تضيع فرصة لا تأتي في العمر إلا مرة واحدة، بل قد لا تأتي
أبدًا...

- ليتها طلبت مالا... ما كنت ترددت لثانية واحدة..

وماذا طلبت إذن؟

- فلتكن مشيئة الله أو الشيطان...

ماذا تعني؟

- انتظر حتى أخبرك بقراري.. ولن يطولن انتظارك..

وسط المشاعل المضئية والموائد الممدودة وعلى قرع الدفوف ركع الشاعر على ركبتيه أمام الغزالة، وأخذ يبادلها القبلات ويده اليسرى تربت بحنان على رقبتها الشائخة. تسلفت يمناه وراء ظهره وهي ترتجف. في لحظة مشثومة عادت يده اليمنى من مخبئها بسرعة البرق، وغرست خنجرًا في عنق أمه. اتسعت عيناها دهشةً وألمًا، ولكنها لم تتوقف عن تقبيله، ولم يتوقف هو عن طعنها بشبق ألهبه منظر الدم المراق حتى خارت أرجلها وسقطت على الأرض...

وقف وقلبها بقدمه حتى واجهت بطنها البيضاء ظلام السماء. من دون تردد وبمهارة جزار؛ أخذ يسلخها أمام صمت الجمع المشدوه. لما انتهى من مهمته الشنعاء، أخذ جلد الغزالة وغسله في أمواج المحيط المصطخبة. ركع على الأرض أمام معشوقته الجميلة، ورفع يديه إليها قائلاً:

— هاك المهر الذي طلبتيه ثمنًا لعشقتك..

حدثت جلبة عظيمة وتعالّت شهقات وصرخات مجلجلة، وبدأوا جميعًا في الحديث في نفس واحد:

— ماذا فعلت يا مجنون؟

— أهذا جزء الحنان والإكرام؟

— لعنة الله على العشق، وعلى الشعر، وعلى من سَمَاك شاعرًا...

— جلد أمك يدفع ثمنًا لفرج تلك العاهرة؟

— امش من هنا ولا ترينا وجهك مرة أخرى أبدًا...

— غر من أمامنا.. ملعون أنت في الدارين..

— لولا إيماننا لجلدناك حتى الموت... امش من هنا..

— مطرود.. مطرود.. إلى الأبد مطرود..

انهالت المقاعد والأكواب والأطباق والجمرات المشتعلة على رأس الشاعر. غطى هامته يديه وأخذ يجري هنا وهناك في خطوط متعرجة، محاولاً تفادي الرجيم النازل عليه من كل اتجاه حتى اصطدم بي في جريه المذعور، فأمسك بخناقي وقال بأعلى صوته:

- ضيف النحس هذا هو المسئول.. هو الذي قال لي: إن الحب لا يقدر بثمن.. هي قالت: مهري ثمن حبي إزار من جلد الغزالة.. وقالت: لا أريد أن يكون في قلبك سواي، ولا أن تقبل شفتاك غير شفتي.. وهو الذي أوعز إلي أن أعطيها ما تريده وما تشترطه.. هو المجرم وهو المسئول وأنا برئ..

تحولت الصخور والأحجار والكؤوس الطائرة من رأسه إلى رأسي. وانصبت علي لعنات بغير عدد:

- استصفناك وأكرمناك وأطعمناك من جوع، وسقيناك من عطش، ونجيناك من بؤس، وكان جزاؤنا غدرك..
- لم أكن أعرف ما طلبته.. لو عرفت لنصحته أن ينساها..
- إياك أن تقترب منا بعد هذه اللحظة أبداً.. لا وفكك الله في بحثك عن روحك يا عديم الروح.. عليك اللعنة إلى أبد الآبدين..

عندها دوى هزيم الرعد، وشق وميض البرق بطن السماء، وهبت ريح صرصر عاتية أطارت الخيام والموائد والقباء، وانفتحت أفواه القرب فنزل المطر سيلاً مدراراً يطفئ النيران، ويفسد الشواء، ويثير الرمل زوابع وأعاصير تحملني وتلقي بي على الأرض حتى رضت أضلاعي وتكسرت عظامي.. صرخت بأعلى صوتي ورحت في إغماءة تشابه الموت المريح...

حدوتة كأننا يا بدر

كل شيء بعيد جدًا وغير محدد الملامح. المشهد يماثل النظر في مرآة يغطيها البخار. التفاصيل غائمة ومغبشة ونائية. الآلام تكسر عظامي، وأدنى حركة تبعث بسهام من الوجع في كل عضلاتي. تأوّهت بصوت عال، وتحسست الغطاء السميكة؛ فوجدت نفسي ملفوفًا في فرو دُب أسود، غزير الشعر ناعم. هل كانت هناك امرأة سمراء ذات ضفيرة سوداء لامعة تربط رأسها بشريط ملون غرست فيه ريشة نسر، أم أنني أحلم؟ فتحت عيوني بصعوبة فوجدتها راكعة بجواري تضع كمادات باردة على جبهتي من دون أن تنم ملامح وجهها الجميل عن أي مشاعر.

قلت:

— أين أنا؟

قالت الجالسة إلى جواري:

— لقد نطق.. لقد عاد إلى الحياة..

رأيت وجوه عدة رجال ونساء تتحلق فوقني، وتفتحصني بعيون حالكة السواد، قلت:

- من أنتم يا جماعة الخير؟ وما سر اجتماعكم عليّ؟
- نحن قبيلة أهل المياه الزرقاء الضاربة إلى الخضرة.. نحن أصدقاء فلا تخف..
- وكيف وصلت إلى هنا؟
- عندما تتعافى سنخبرك بكل ما جرى.. الآن عليك أن تأكل شيئاً.. لم تدخل بطنك لقمة طويلة أيام الغيوبة..
- وكم دامت غيوبتي؟
- أطول بكثير مما ينبغي.. اسكت الآن وكل حتى تسترد قواك..

أسندت الممرضة ظهري إلى حشية صلبة، وأمسكت بملعقة خشبية أخذت تسقيني بها الحساء. عندما انتهيت منه؛ أتى رجل عجوز يتهدل شعره الأشيب في ضفيريّتين غليظتين على كتفيه وتحيط عنقه المملوء بالتجاعيد قلائد من الخرز، وعقود من أسنان الذئاب، وسلاسل من الصدف، وفوق رأسه تاج من ريش الطواويس والصقور، مديده بكأس فخارية، وقال بلهجة امرأة:

- اشرب..
- ما هذا؟
- مسحوق قرون الوعول مخلوط، بعشبة الكهرمان، مذاب في قطرات الندى المتجمعة على أوراق شجر الحور.. سيفيدك كثيراً.. اشرب..

على الرغم من بشاعة المذاق، أحسست بتحسن فوري. زالت الستر الشفافة التي كانت تفصلني عن العالم. رأيت كل شيء بوضوح. نظرت إلى الطبيب وسألته:

- أئن تخبروني بما حدث. وكيف استقر بي المقام هنا؟
- من عدة أيام رأينا أسراب الجوارح من صقور ونسور وحدثت تحلق وتحوم في دائرة نازلة صوب الشاطئ.. أدركنا أن هناك جيفة أو حيواناً جريحاً واقفاً على الرمال يعد تلك الطيور بوجبة شهية. ذهبنا لنلقي نظرة آملين أن نجد جاموسة وحشية أنهكها البرد؛ فنشوي لحمها ونصنع من جلدها غطاءً يقينا الصقيع.. وجدناك مرمياً على الأرض، وفيك نفس واهن يتردد فدخلنا معركة ضارية مع الجوارح، وأنقذناك منها بعد أن نهشت من ساقك وذراعك قطعاً. كان جسدك يغلي بحرارة الحمى، والدم ينزف بغزارة فحملناك على ظهر واحد من جيادنا، وأتيننا بك إلى خيمتنا المتواضعة..
- إذن أنا مدين لكم بحياتي.. التي لا تساوي شيئاً..
- الآن جاء دورك.. فسر لنا ما جاء بك إلى ذلك الشاطئ المهجور في أوان البرد القارس، وماذا كنت تفعل هناك وحدك؟
- لم أكن وحدي!! كان أهل الشاطئ يأتون كل ليلة ومعهم الغزالة وابنها، ويضربون خيامهم ونطبخ ونأكل ونشرب ونرقص ونختتم الليلة بسماع الشعر..

نظر الطبيب إلى الممرضة وقال:

- تحسسي جبهته، ثم أطعميه قطعة من قلب الثعلب المخلل.. يبدو أن هلاوس الحمى قد عاودته..
- اجتاحني غضب متفجر فصرخت:
- لن أكل قلب الثعلب ولا مخاصي الدبة.. لست محمومًا وما أقوله ليس هلاوس ولا تخاريف.. إنه الحق كل الحق، ولاشيء غير

الحق.. لقد قضيت معهم كل ليلة لمدة ثلاثة أسابيع وأكثر.. أسعد أيام حياتي عشتها معهم حتى وقعت الواقعة وانشق القمر، وسال الدم، وحل الغدر محل الحب، والكراهية محل الوفاء، فهل أنتم مصدقي؟

أخذني الحكيم في حضنه، وربّت على ظهري برقة وحنان متناهيين، وقال بصوت مطمئن:

- اسمع يا ولدي.. من عليائنا على قمة هذا التل نرى كل شيء يجري على الشاطئ.. لو حك واحد حجirin في بعضهما أو أشعل قداحة من البلاستيك الرخيص، لرصدناه من فورنا.. طيلة الأسابيع التي تتحدث عنها، لم نرأي شيء يحدث هناك في ظلام الليل.. بحكم سني وخبرتي والحياة التي عركتني، أعرف أن في الدنيا أعجب الأعاجيب، وأن هناك من أوتوا القدرة على رؤية ما لا يراه غيرهم.. ولكنني - إذ أرى هالة الظلام الحالك المحيطة برأسك - أعرف أنك لست واحدًا من هؤلاء الموعودين.. مع ذلك لن أدخل معك في جدل.. ربما كان ما تقوله صحيحًا، وربما كان مجرد تخاريف الجفاف ونقص المياه، أفضل السبل لمعرفة ما جرى هو أن تحكي لنا حكايتك...

- حكايتي طويلة.. من أين أبدأ؟

- أبدأ من البداية.. الليل أمامنا طويل ويحب الحواديت..

ما إن انتهيت من سرد حكايتي في شَهَقَات ونَهْنَهة ودمع يسيل؛ حتى
هز الحكيم رأسه وقال:

- لن أحاججك فيما قلت وما حدث وما لم يحدث.. كل ما
يمكنني قوله هو أنك أخطأت في حق نفسك.. خرجت تبحث
عن ترياق إعادة الروح، ولكنك غرقت في مسرات أهل الشاطئ
المجهولين ونسيت مسعاك ومبتغاك.. ولما أضعت الهدف ضاع
منك الطريق..

- وماذا أفعل الآن؟

- لا حل لك إلا أن تلد أو تُولَد...

- تاهت ولقيناها يا حَكيم الزمان! كيف ألد وأنا لا عندي فرج ولا
رحم ولا مبيضان ولا قناة فالوب؟ وكيف أولد وقد ولدتنى أُمِّي
من عثرات السنين، وها أنت تراني جالسًا أمامك بحجم البغل
وإن لم أكن بمثل فائدته؟

- الأمر في غاية البساطة.. عُدْ إلى رحم أمك.. وعندها ستولد من
جديد..

- سيدي البرد شديد، أتريد أن تعاودني الحمى؟

- قلت تجرد من كل ملابسك.. الآن ومن دون مناقشة!

رضخت لأمره، ووقفت أرْتَجِف أمام الكوخ الواطئ المستدير الخالي
من الشبابيك. فتح الباب الصغير؛ فهبَّ منه بخار دافئ تكثف في الهواء
المثلج..

- عُذْ مصحوبًا بالسلامة إلى رحم أمك الأرض.. ادخل مطمئن القلب؛ فلا الظلمة تخيف ولا الصمت يرعب ولا العزلة ترهب؛ لأنك تعرف أنك من الراجعين.. لا تخش شيئًا.. ولتكن ولادتك الجديدة سهلة يسيرة..

أغلق الباب ورائي دون صوت، رحبت بالدفء الرطب في الممر الضيق لكنني فوجئت بالعممة التي لم أعرف لها مثيلًا من قبل.. ظلامٌ كثيف له سُمْكٌ ووزنٌ ثَقِيلٌ يحيط بي من كل اتجاه، قلت لنفسِي: إن عيني ستعتادان على حلكنه بعد لحظات ويعود البصر إليهما على الرغم من انعدام النور. مرت هنيهة وتلتها أخرى، ثم أدركت أنني أمارس هوايتي المعهودة في خداع النفس والكذب عليها؛ لم يكن هناك أدنى احتمال على الإطلاق أن أرى شيئًا، ولو قضيت في الممر قرونًا، ليس أمامي إلا السير معتمدًا على تحسس كفيّ للجدران الزرجة المطبقة عليّ، أو أن أكون كالوطايط التي تسترشد في طيرانها الأعمى بصدى الترددات المغناطيسية. مشيت مترددًا مستندًا إلى جدران الدهليز المنحدر.. بعد دقائق اتسع الطريق فجأة فتعثرت ووقعت على وجهي في بحيرة من الطمي الدافئ.. حاولت القيام وأنا أشهق، ولكن قدمي زلقت فسقطت مرة أخرى وكان رعبي لحظتها أعمق من أي بحيرة، ولكنه لم يلبث أن تبدد عندما ترامى إلى سمعي إيقاع منتظم، يمكن أن يكون هناك من يقرع طبله في هذا المكان.. أم أن هذه دقات قلب الأرض تؤنس وحشتي؟ بالحدس وحده وجدت الحائط فجلست مسندًا ظهري إليه وأنا ألّهت، هدهدني الإيقاع وبعث في قلبي طمأنينة فضمت ركبتي إلى صدري ودسست رأسي بينهما، والتصقت بالجدار الناعم، ورحت في نوم عميق..

صحوت من نومي منتعشاً، تقلبت في الطمي الساخن، وترددت في أذني كلمات حكيم القبيلة وهو يفسر لي خطوات الخلاص:

«أقم في رحم الأرض ما طاب لك المقام. إذا داهمك الجوع فتبلغ بطينها، وإن هاجمك العطش فاشرب سائلها الأمينوسي. لا تتعجل الخروج. انتظر إلى أن تشعر أنك جاهز للميلاد الجديد، وأن صدرك مستعد لاستقبال الروح التي ستنفخ فيك».

دقات قلب الأرض تقول لي: ابق في مكانك. ماذا تريد من العالم خارج رحمي الآمن؟ هل أعطتك الدنيا سوى الوعود الكاذبة والحسرة وخيبة الأمل؟ فترد عليها كلمات الحكيم:

«سلام الظلام والصمت الذي لا يقطعه إلا الإيقاع الثابت الرتيب، سيثير في قلبك رغبة في التشبث بجدار الرحم وعدم الخروج منه أبداً، لكنك خاضع لقوانين أكبر منك ولا تملك إلا أن تعنولها صاغراً، ستأتي لحظة يقرر فيها جسدك أن أوان الولادة قد آن، وأن اشتياقه للنور المخيف أقوى من استنامته لطمأنينة غياهب الظلام. ساعتها ستجد نفسك تنتفض واقفاً تتحسس حوائط الرحم الطيني حتى تجد باباً صغيراً. ستصارع مقبضه في الظلام حتى تتمكن من فتحه، فتجد نفسك في دهليز ضيق منحدر. هذه المرة مسئوليتك وحدك. ليس هناك جدران رحم تنقلص لتدفعك إلى الهواء النقي، ليس هناك كيس ينفجر فتسيل سلايين الولادة وتساعدك على الانزلاق من المهبل الضيق. ليست هناك ألم تصرخ منه امرأة عندما ينفث عنق الرحم بقطر عشرة سنتيمترات، وينفلق جسدنا نصفين، ويترك الطلق ظهرها بمعاول من نار، ويغرق دمها الملاء البيضاء

حتى تشرف طلعتك البهية الدنيا.. هذه المرة الجهد جهدك وحدك..
والمهمة مهمتك وحدك.. وللأسف الألم المأك وحدك..»

في الممر الخانق الواعد بالخروج، كنت أسبح في نهر من الحمم، الطين
يملاً أنفي وفمي وأنا أدفع الجدران بساقي بكل ما أوتيت من عزم. أخذت
أشهق وأزفر بصوت عال متذكراً نصيحة الحكيم بأن أركز نظري على
الفتحة البعيدة الضيقة التي تلوح منها دائرة من ضوء، من دون أن أسمح
للتعب أن يوهن إرادة الوصول. التوقف يعني الاختناق، انطح برأسك..
حرك ذراعيك.. اجبر التيار المتدفق أن يحملك إلى ضياء الدنيا الواسعة
وغبطة الروح الجديدة..

عند اللحظة التي خارت فيها قواي، وأدركت أنني لن أتمكن أبداً من
الوصول إلى هدي في القريب البعيد، رأيت شيئاً يشبه ملقطاً خشبياً عملاقاً
يمسك بجبهتي من الجانبين ويجري صوبه، أحسست أن رقبتني ستخلع
من جذورها ولكنني - بدفقة طاقة مفاجئة لا أدري من أين وائتني -
وثبت إلى الأمام ووجدت نفسي وسط حلقة من أهل القبيلة. كنت أسعل
وأصرخ والطين والمخاط يتدفقان من منخري، رفعني اثنان منهما من
كعبي؛ فخرج الماء الوسخ من رثتي وحلقي، غسلوني بماء دافئ معطر،
ولفوني بثوب ناعم ناصع البياض، سكب أحدهم شراباً مقويّاً في فمي،
بينما أمسك الحكيم بأذني، وأخذ يرتل فيها أدعية وصلوات لم أفهم منها
حرفاً، وأخيراً سألتني:

- ما اسمك؟

- اسمي الآخر...
- الله يخرب بيتك.. يا ضيعة جهدك وجهدنا يا أحق الحمقى..
وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا..
- لم؟ ماذا حدث يا مولاي؟
- الميلاد الجديد يتطلب هوية جديدة، وأهم شيء في الهوية الجديدة
الاسم المختلف، تمسكت بغبائك وعنادك بالاسم القديم فضاع
كل شيء...
- ألم تُنفخ في روح جديدة؟
- كانت على وشك الحلول فيك، ولكنك أردت أن تجمع القديم
والجديد في الآن عينه؛ وهما ضدان لا يجتمعان فأضعت الاثنين..
ولم يعد أمامك إلا أن تستأنف سعيك اليائس..

حدوتة المرأة الصادقة

أغرقت في ضحك هيسيري حتى استلقيت على ظهري، وأخذت أصفق بيدي، وأرفس بقدمي في كل اتجاه، وأفقهه بصوت مرتفع يقارب العويل عندما سمعت قول الحكيم أن لم يعد أمامي إلا استئناف سعيي اليائس. قلت:

- قال لي الغابات والأشجار والشواطئ فلم أكذب خيراً، وحملت هلاهيلي وخلقاتي وتشاؤمي وذهبت. دخلت من الباب الكبير تحت الأوامر الثلاثة كما نصح فلم أجد شيئاً، وطرّدوني بأدب وبصنعة لطافة، وبدلاً من أن يقولوا أرنا عرض أكتافك قالوا: إن شاء الله عندما توفّق ستجد أبوابنا وأحضاننا مفتوحة لك. يا سلام على الكرم والجود والأريحية!! فيم سأحتاجكم لو وفّقت إلى ما أريد؟ أخذت بعضي وذهبت إلى الشاطئ كما أشار عليّ، وقضيت فيه الأيام السعيدة حتى حدث ما حدث فتقطع قلبي وملأني الحزن من دون أن أنال شيئاً مما سعت إليه. وتحدث عن شلالات المياه الزرقاء الضاربة إلى الخضرة، ووجدت نفسي عند قبيلتكم الكريمة التي تحمل الاسم ذاته، فماذا أصبت؟ قلتم لي إن الشاطئ كان وهمّاً، وما عشته فيه كان أكذوبة، وما سمعته هناك

لم يكن إلا تخيلات مجنون مأفون ذاهب العقل مضيع الصواب،
 قلت: عُذ إلى رحم أمك، فعدت، والباقي تعرفونه فلا أنا استعدت
 روحي ولا استبدلتها بواحدة جديدة، ولا حققت أي شيء...
 لماذا لا تُعقد بطولة عالمية للخسران، جائزتها كأس من الصفيح
 وميدالية صدئة؟ لن تُعقد لسبب بسيط هو أنني سأكون بطلها
 الأوحـد لسبع دورات متتالية، قبل أن ينجح أحد في تحطيم رقمي
 القياسي؟ ولكنهم سيستكثرون عليّ الكأس الصفيح، ويرونها
 كالـكـعـكـة في يد اليتيم، لا علينا من البطولات، فلينشأ اتحاد دولي
 للندم والفشل وأؤكد لك أنني سأكون رئيسه الفعلي والفخري
 والتنفيذي من دون حاجة إلى انتخابات... هل لهذا الظلام من
 آخر؟

نظر إليّ الحكيم بوجهه الثابت وملاحه الجامدة الخالية من أي تعبير
 حتى انتهيت من مناحتي وقال:

- لو كان للطعم الحدود من نفع لنصحتك أن تلطم خديك بالمركوب،
 ولو كان شق الجيوب يفيد لأشرت عليك أن تشقها حتى الذيل،
 وإن كان الندب والنواح سيعود عليك بشيء؛ لشجعتك أن
 تصرخ حتى يُسمع صراخك ما بين نبتون وعطارد ويتدرد صداه
 في طول وعرض درب التبانة... ولكن للأسف لا أملك أن أقول
 لك إلا: واجه قدرك بشجاعة النساء..

أعطوني خيمة وغطاء وقوسًا وسهامًا وكيسًا مملوءًا بالطعام والعقاقير الضرورية لمواجهة الطوارئ، وبلطة لقطع الأخشاب. وطبعًا بفضل اسم القبيلة لم ينسوا إعطائي زمزية ماء. قبل خروجي أخذني الحكيم جانبًا ليعطيني وصاياه:

- كلنا من أصغر جرثومة ميكروسكوبية لأكبر فيل وحتوت أزرق سياح في هذا الكوكب وضيوف عليه، فلا تثقل على مضيفك ولا تكن مثل أهل مدينة النحاس شرها متلافًا، لا تأخذ ما لا تحتاجه ولا تبدد القليل المتاح، واعلم أن ما تقطفه أو تخطفه من دون احتياج حقيقي؛ فسيُحرم منه من يأتي بعدك ولو فعلها من سبقوك لما وجدت أنت شيئًا، وهذا دين في عنقك يجب أن تسدده لمن قبلك ومن بعدك. لا تلوث ماء نهر ولا تجرح وجه الأرض الجميل دون سبب، لا تقلع شجرة ولا تحرق نخلة، وعندما يجبرك البرد على إحراق الخشب؛ لا تمس إلا الأغصان الميتة الساقطة على الأرض، وإذا اضطررك الجوع إلى إطلاق سهم على وعل أو أرنب بري؛ فاعتذر له بإخلاص وقل له وهو يوجد بآخر أنفاسه: إنه يفي بدوره في حلقة الحياة التي لا تكف عن الدوران، وإنه على الرغم من موته، سيحيا فيك حتى يجيء دورك فتحيي الأشجار بجسدك... وخذها نصيحة من مجرب يعرف أحسن من الطبيب: لا تجعل النهم يوردك التهلكة، لا تأكل ثمرة لا تعرف اسمها، ولا فاكهة يروك لونها، ولم يسبق لك أن جربتها..، ففي ثمار الغابات؛ يكمن سم ناعم فابتعد عنه... وأخيرًا وبالتأكيد ليس آخرًا أرحنا وحياة والديك من فن المراثي والعديد الذي تخصصت فيه وأبدعت، عندما تلف الدنيا يا روح أمك، وترى كل بؤسها، وتعرف تفاصيل أحزان كل واحد من

إخوتك المليارات الستة الذين يملأون أنهارها بدموعهم.. لك وقتها أن تزعم أنك بطل العالم في الخسران والفجيعة.. أما قبل ذلك فلا.. أكرمنا بصمتك..

- إلى أين أذهب الآن؟

- هل تذكر ما قاله القط المبتسم لأليس الصغيرة في بلاد العجائب؟
«ما دمت من دون وجهة تقصدينها؛ فلا يهم أي الطرق تسلكين». من دون هدف تستوي كل الطرق.. وكلها تؤدي إلى النقطة ذاتها.. اذهب في أي اتجاه مصحوبًا بالسلامة..

نصبت خيمتي بجوار غدير رقراق يجري بين الصخور؛ فأمنت عائلة العطش. توطدت الصداقة بيني وبين الغابة وأشجارها وكل مخلوقاتنا. في الصباح أقوم فأغسل وجهي في الماء الثلج؛ وأذهب للبحث عن الأخشاب التي أستدفي بنارها وأشوي عليها الحيوانات التي أصيدا. تعلمت بسرعة أي الأعشاب تنفّر رائحتها جحافل البعوض الهاجمة في الليل، وأي من أوراق الشجر أنعمها وأفضلها لتنظيف نفسي بعد ذهابي إلى الغائط، وعرفت أي حفر يجب أن أتفادها مخافة الحيات السامة التي لا يجدي معها طب ولا دواء..

وذات يوم ذهبت كعادتي إلى الغابة لأحطب، وجدت خميلة أشجار فيها حطب كثير، ورأيت شجرة جافة ميتة فحفرت حولها وأزلت التراب عن جذورها، وإذا ببلطتي تصطك في حلقة من نحاس، فنظفت التراب من حولها، وإذا هي في طابق من خشب، فكشفتها؛ فبان تحته سلم

فنزلت إلى أسفله؛ فرأيت بابًا دخلته؛ فوجدت نفسي في سرداب طويل خافت الضوء؛ فسرت فيه. كنت خائفًا مرعوبًا، ولكن الفضول -قاتله الله- تملكني، ولم يسمح لي بالرجوع. ما هي إلا لحظات ورأيت على يساري بستان بابه مقنطر عليه كروم وأعناقها مختلفة الألوان؛ الأحمر كأنه ياقوت، والأسود كأنه أبنوس، والأطيّار من قمري وشحرور وهزار تقف ثابتة على الأغصان، والأشجار قد أينعت ثمارها من كل فاكهة زوجان، مشمش كافوري ولوزي ومشمش خراسان، والبرقوق كأنه لون الحسان، والقراصيا تذهل عقل كل إنسان، والتين ما بين أحمر وأخضر وأبيض من أحسن الألوان، والزهر كأنه اللؤلؤ والمرجان، والورد يفيض بحمرته خدود الحسان، والبنفسج كأنه كبريت دنا من النيران، وضحك ثغر الأقحوان وتمایل النرجس على الأفنان...

تجاهلت الحذر الواجب وجريت كالمجنون داخلًا البستان، لعابي يسيل من تشوقي ولهفتي على الفاكهة التي حرمتني منها تحذيرات الحكيم، حاولت قطف تفاحة فلم أستطع، قربت أنفي من شجرة الياسمين ولكنها كانت بلا عطر.. لم تخف الطيور من الضجة التي أحدثتها، ولم ترفرف بأجنحتها فارة من اقتحامي لملاذها الأمين.. لم أحتج إلى كثير وقت أو كبير ذكاء كي أدرك أن كل شيء في البستان القابع في السرداب كان من البلاستيك.. بلا طعم.. ولا رائحة.. ولا روح....

أقول لك الحق أنا خفت في تلك اللحظة.. هل من الممكن أن يكون البستان البلاستيكي تحت الأرضي وهما آخر، كما قال حكيم القبيلة عن شاطئ غرالة الأشعار؟ هل يأتي أحد بعد أيام أو أسابيع ليقسم لي إن ما أراه بعيني وأسمعه بأذني ولا تجد أنفي له رائحة، شيء لا وجود له إلا في ذهني؟

قررت أن أستكمل الرحلة إلى آخرها. خرجت من البستان الميت، واستأنفت السير في السرداب. بعد أقل من عشر خطوات وجدت نفسي في غرفة نوم تليق بالأباطرة، وعلى السرير الذهبي في منتصفها، وجدت صبية كالدرة السنية تنفس عن القلب كل هم وغم وبلية تغط في نوم عميق لم يقلقه اقتحامى لغرفتها، هل هي الأخرى تمثال من البلاستيك؟ أم وهم من أوهامي؟ هل هي نائمة حقاً أم وقع عليها سحر يجعل عودتها إلى الحياة مرهونة بقبله يطبعها على شفيتها فارس؟ حطت قبلي كنسمة الفجر على شفيتها؛ فقامت مفروعة وجذبت الأغطية الحريرية حتى عنقها خجلاً واحتشاماً. قالت:

- إني أعود بالله منك إن كنت إنسيًا، أما إن كنت من الجان فاستشفع لديك بنقش خاتم سيدنا سليمان وبمكانة وزيره آصف بن برخيا عليهما السلام..
- أنا الآخر الغلبان، الذي عذبني الزمان، وأوقعني في هذا المكان، فمهما شئت فافعليه الآن.. لا تخافي مني شرًا ولا غدرًا ولا أذى يا سمو الأميرة..

بابتسامة رأيتها آية في الرقة والخفر سألتني:

- من أدراك أني أميرة؟
- أشرت حولي قائلاً:
- هذه الأبهة وهذه الطنافس والرياش الوثيرة..
- قاطعني بصوت حاد وإشارة من يدها تنم عن نفاذ الصبر:
- كلها أكذوبة!! قشرة من الفخفخة تخفي وراءها الحقيقة المؤسفة..
- انظر، هذه الملاءة من خز نيسابور تغطي حشية من الخيش المحشو بالقش.. وتقول لي طنافس؟

قلت بصدق نابع من القلب:

- إذن هذا الجمال الآسر هو ما يخبرني بمكانتك الملكية...

سألتني بلهفة:

- هل أنا جميلة حقاً؟

- فوق ما يتصوره إنسان..

ترددت للحظة ثم قالت بتوردٍ خجلٍ لم أر لسحره من قبل مثيلاً:

- صف لي وجهي..

- لقد رحت وجئت ورأيت من الدنيا الكثير والقليل، ولكن قولك

هذا أعجب من كل الغرائب التي شهدتها ونكتني بها الدنيا..

- منذ اختطافي ليلة عرسي وحبسي في هذا المكان، لم أر وجهي

ولا مرة... المرايا محرمة في هذا القصر الزائف؛ ولهذا نسيت

ملاحي تماماً.. اشتقت لمحيائي.. أرجوك صفه لي..

- مولاتي لا أريد أن أقع في فخ العبارات المصكوكة سابقة التجهيز

التي تفقد معناها من كثرة التكرار؛ فأشبه شعرك بليل حريري،

وجبينك بهلال لجيني، وحاجبيك بالقوس المشدود ورموشك

بالسهم المنطلقة، وعيونك بالبحيرات الدافئة، وأنفك بالعاج

المنحوت، وفمك بخاتم من عقيق، وخديك بلون الخوخ الناضج،

كل ما أستطيع قوله هو أن وجهك مقطوعة موسيقية، كل نغمة

فيها تولد من سابقتها، وتمد الطريق للاحقتها، كل نغمة -في

حد ذاتها- سماوية العذوبة، ولكنها باتحادها وتتابعها تكوّن

المعزوفة المتكاملة التي تسي، العقول وتخلب الأبواب بجمالها

الفردوسي..

أشرق وجهها بابتسامة بقوة ستمائة وات وقالت:
- إن من البيان لسحرا... يظهر أنك نمس كبير..

كنت على وشك أن أدعو الله أن يجازيها خيراً على حسن ظنها الذي لا تدعّمه من خيبيتي دلائل ولا أسانيد، وكنت أيضاً أفكر في طريقة أطرح بها الأسئلة التي تحيرني عن سر اختطافها وهوية خاطفها وسبب وجودها في ذلك المكان العجيب، عندما سمعت صلصلة مفاتيح ووقع أقدام تقرب. قالت بهدوء:

- لقد وصل.. يحسن بك أن تختبئ في هذا الدولاب قبل أن يراك.. لن يقضي هنا إلا دقائق معدودات لسماع جرعة تكفيه من الأكاذيب الملفقة التي يدمنها ولا يستطيع العيش من دونها.. ادخل..

فتحت باب الدولاب المزخرف المطلي بقشرة الذهب المزيف، ودخلت في قلبه الخرب ذي الجدران الخشنة. وجدت ثقباً صغيراً يتيح لي أن أتابع ما يجري في جزء من الحجرة. بعد ثوانٍ قليلة دخل. احتجّت لقوة إرادة وضبط نفس هائلين حتى لا أنفجر ضاحكاً. قزم لا يزيد طوله على ثلاثة أشبار يسير مختالاً وعلى رأسه طرطور يفوقه طولاً، تزينه النجوم وشموس صغيرة مطفأة. عيناه كعيني الضفادع الجاحظة، وأنفه أفطس، وبثور جذري أو مرض جلدي قديم تملأ خديه الضامرين، في يده سوط طويل يفرقع به بين لحظة وأخرى، ثم يضحك من دون سبب ضحكة جوفاء مصطنعة عديمة الروح. من فمٍ باتساع أفواه البقر خرج صوته كالخوار:

- ماذا تفعلين يا أقبح النساء وجهاً، وأشنعهن سحنة؟

ردت بصوت آلي رتيب:

- أنتظر خاضعةً قدوم مولاي السعيد..
- وحق طرطوري لولا أنك تحسنين الكلام لمزقت لحملك تمزيقًا،
وكسرت عظامك الطرية بهذا السوط تكسيرًا..

قالها وحرك سوطه بمهارة فشق الهواء بفرقة عالية، ثم سأل:

- هل طفحت من ثمار البستان الزاهر الذي غرسته لك بيديّ
الكريمتين؟
- نعم يا مولاي.. أكلت وشبعت وحمدت الله وشكرتك بعده..
- قسمًا بطرطوري، لو كان نهمك قد دفعك للإتيان على الفاكهة
والتهامها عن بكرة أبيها؛ لذبحتك بسكيني الثلثة، وألقيت
لحملك المر للكلاب الجائعة التي ستشتمه بأنوف مكرمشة مجمدة
من القرف، ثم تأنف أن تنجس به أفواهاها..
- لم أكل إلا ما يكفيني، ويقيني على قيد الحياة؛ لأنتظر أن تطل
عليّ طلعة مولاي البهية، وتبدد بضائنها ظلام دنياي..
- هل تفتحت الزهور وفاح عطرها، ونضجت الثمار وسال
عسلها؟
- بفضل رعايتك العظيمة وأياديك الكريمة أزهرك كل شيء، وأينع في
غير أوانه..

مشى في الغرفة جيئة وذهابا منتفخ الأوداج مزهوًا. فرقع بسوطه مرة
أخرى وسألها بصوت عال ارتجت له الجدران:

- هل عرفت الدنيا رجلاً أطول مني قامه؟
- هذا مستحيل يا مولاي..

- أكثر مني وسامة؟
- بالطبع لا يا مولاي...
- هل هناك رجل يفوقني حكمة ورقة مشاعر وخبرة ودراية بأحوال العالم والخلق؟
- عقلت النساء أن يلدن مثل ذلك الرجل..
- قولي الحق! هل وطأ الأرض رجل أكثر مني فحولة أو أكبر مني قضييًّا؟
- فشر ولا كان يا مولاي..
- قسمًا بتاجي الطرطوري إن لسانك الذرب قد نجاك من عذاب لا يخطر على قلب بشر..
- لك الشكر يا مولاي.. ما أعطيت فضل منك كبير..

كاد الضحك المكتوم والغضب المكبوت أن يخنقاني، وأنا أنظر من الثقب الصغير وأراها جالسة على السرير منكمشة خائفة، ويمتلئ قلبي شفقة عليها ورغبة في إنقاذها من جنون ذلك القزم التافه. ولكن كيف لي أن أفعل ذلك من دون سلاح؟ فجأة تحسست جيبي وتذكرت ما أعطاه لي حكيم قبيلة المياه الزرقاء الضاربة إلى الخضرة لحظة الوداع وقوله: «خذ معك هذا البوق الخليوي المحمول النقال.. لا الكارت ولا البطارية ستسمح لك بأكثر من نفخة واحدة؛ فلا تستعمله إلا في حالة الضرورة القصوى.. إذا ادلهمت عليك الخطوب، فاطلب رقم ٣٣٣ وانفخ في البوق تجديني أمامك...»

ضربت الرقم متوسلاً إلى البوق السحري ألا يلفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن أحقق هدفي. بعد رنة واحدة أتاني صوته:

- ماذا تريد؟

- أريد مرآة وحبالاً بأسرع ما يمكن..

قبل أن تنقضي اللحظة وجدته بجواري في الدولاب الضيق. ناولني
مرآة صافية ولفة من الحبال ورفع يده إلى رأسه مودعاً. قلت هامساً:

- ألا تبقيّ معي للحظات لتساعدني في المعركة الفاصلة؟

- الآن لا لي ولا عليّ. لقد قمت بواجبي تجاهك، والباقي عليك
أنت وحدك...

انتظرت اللحظة المناسبة حين أدار القزم ظهره للدولاب، ووقف
يفرقع بسوطه، ويطالبها أن تنشد فيه قصائد المديح وخطب التقريظ،
ويهز طرطوره طرباً بكلماتها المغتصبة. دفعت باب الدولاب بكل قوتي
فضربه في مؤخرة رأسه، واندفعت فطوقت عنقه بين مرفقي وساعدي.
أخذته المفاجأة فترنح وانطرح أرضاً. دسّ على الطرطور بقدم، وركلته
في وجهه بالأخرى زاعقاً بأعلى صوتي:

- أنت حشرة.. وسأسحقك تحت قدمي كما تستحق الحشرات..

من هول المباغثة؛ لم يستطع أن ينطق حرفاً وظل ينظر إليّ بذهول
والدموع تلمع في عينيه..

- يقولون وقولهم صدق: إن مرآة الحب عمياء، ولكن مرآة الكره
مبصرة صادقة. انظر في هذه المرأة لترى نفسك على حقيقتها؛
قزم حقير دميم بلا قيمة.. فتح عينيك وانظر..

حوّل وجهه يمنة ويساراً؛ ليتفادى المرأة التي أخذت أنا أنقلها في كل
اتجاه؛ حتى لا يملك منها فراراً...

- وسامتك وطول قامتك وحكمتك وخبرتك وفحولتك ورعايتك
وتوجيهاتك كلها أكذوبة.. وحق طرطوري لأفعلن، وقسمًا
بطرطوري لأسوين.. ها هو طرطورك في المكان الذي يستحقه
تحت نعلي، وها أنا أبصق عليه وعليك.. طرطورك أكذوبة..
قصرك أكذوبة، وبستانك البلاستيكي الميت عديم الروح أكذوبة..
أنت نفسك أكبر أكذوبة.. انظر في المرأة يا تافه..

قال بنحيب كالعواء:

- ماذا تريد مني؟
- أريد قتلك والتمثيل بجثتك القدرة..
- العفو عند المقدرة من شيم الكرام..
- ومن أدراك أي كريم يا بن اللئيمة؟ وما الذي يطمعك في عفوي؟
- سأفعل كل ما تأمرني به.. فقط أبعد هذه المرأة عني..
- أطلق سراحها، وفك رصداك وسحرك الأسود عنها.. لن أقبل
مساومة ولا تسويقًا.. نفذ ما أمرك به الآن وفي هذه اللحظة..
مفهوم؟

أشار إليها بيد واهنة:

- اذهبي فأنّ حرة.. أعتقتك من أسري..

قيدت يديه ورجليه بالحبال. حملته وأجلسه على كرسي كبير.
ربطت جسده إلى ظهر المقعد، ووضعت أمام المرأة:

- هذا عقابي لك وهو جزاؤك الحق على كبائر ذنوبك وما اقترفت
يداك الأثيمتان، أن تبقى في قبرك هذا في مواجهة المرأة الصادقة

التي لا تخفي شيئاً، ولا تحمل شيئاً، ولا تعرف الكذب ولا
المداينة.. وحق طرطورك لتبين من الآن وحتى يشملك الموت
برحمته، ترى في كل لحظة حطة شأنك، وخسة مقامك، وقبح
وجهك، وسوء عملك.. ستظل يا حقير ترى حقيقتك التي لا
مهرب منها..

أخذت يدها، وخرجنا من السرداب المقيت تلاحقنا صرخاته
وعواؤه:
- الرحمة.. الرحمة.. أتوسل إليك أيها البطل المنتصر، والفارس
المغوار، ارفق بحالي.. وافقاً لي عيني..

حدوتة ومن الحب ما نضى

هل تتوقف العيون، ويغيض معين الماء، وينتهي طوفان الدمع هذا؟ منذ خرجنا من قصر الأكاذيب وهي تبكي بلا انقطاع. لما رأت الشمس وسمعت حفيف أوراق الشجر وشمّت الهواء النقي؛ سالت دموعها. وعندما أمسكت بيدها وربّت على كتفها؛ ازداد بكاءها عنفاً حتى أجبرت نفسي على الابتعاد عنها. في محاولة لإيقاف السيل؛ أجلستها على حافة الغدير وأخذت أحكي لها حكايتي من مطلعها حتى لحظة لقائنا. نجحت خطتي؛ فجففت مآقيها، وتحولت بكل كيائها إليّ مستمعة في تركيز عميق. لما انتهيت أخذت يدي بين كفيها وقالت:

- صدق من قالوا إن من رأى بلوى غيره هانت عليه مصيبته. كنت أسأل نفسي منذ معركتك مع القزم ذي الطرطور، كيف أرد لك معروفك وصنيعك الكريم، وأنا لا أملك من الدنيا شيئاً؟ الآن عرفت الرد. توقف عن السعي والبحث، وخذ رוחي فهي من اللحظة ملك يمينك..

- أشكرك على هذا الكرم الذي لا يسعني أن أقبله..

- إذن فلتنقسمها، ولنكن من اليوم روحاً واحدة في جسدين..

قضينا في الغابة أيامًا أسعد بكثير من أيامي على الشاطئ الموهوم.
كل صباح أخرج للصيد وأعود بما تجود به الغابة علينا؛ فننظفه وتشويه
وتطعمني ألد أكل وأشهاه. كل ليلة نجلس بجوار النار المشتعلة نتسامر
ونتكاشف ونحكي لبعض كل ما مر بنا في الحياة، ولما يأتي موعد
النوم، كنت أترك لها الخيمة، وألف جسدي في فرو الدب، وأروح
في النوم تحت نجوم السماء. حكّت لي قصتها مع القزم الذي اختطفها
بسحره الأسود، وحبسها تحت الأرض لسنوات. كان السؤال يحيرني
ويلح عليّ، لكنني كنت خجلاً من طرحه. كنت أحاول أن أتخيل مدى
تقززها واشمئزازها وهو يقبلها بفمه الكريه، أو يلقي بجسده القميء
فوق جسمها اللؤلؤي. ذات ليلة غلبني فضولي فاستجمعت شجاعتي
وقلت:

- آسف على وقاحتي ودسي أنفي فيما لا يعينني، لكنني أريد أن أعرف إن كان قد تزوجك أو اتخذ منك خلية؟
- لم يمسنني قط طيلة تلك السنوات..
- لماذا حبسك إذن؟
- لا لشيء، إلا لكي يسمع مني تلك الأكاذيب؛ ولكي يشعر بذاته وأهميته كلما ضربني وسبني وجلدني وجعلني أركع تحت قدميه مسترحمة.. مريض ومجنون ابن الكلب..

مع مرور الأيام لاحظت أن عينيها تبرقان بسعادة غامرة عند عودتي من الصيد، وأن وجهها يتهلل بشرًا إذا أثبتت على طعامها، أو قلت لها كلمة حلوة. أحيانًا كانت تنسى نفسها وتقبلني على خدي ساعة الخروج، لكنني لم أغير أسلوب تعاملي معها قط، أبقيت على المودة والاحترام والمسافة الآمنة؛ مخافة أن أثقل عليها بعد ما مرت به من محن،

أو أن تظن أنني أطلب بثمر ما فعلت. ثم جاء مساء تمنيت لها فيه نومًا هادئًا، ورقدت أتأمل النجوم الزاهرة حتى رحت في النوم. بعد لحظات استيقظت على دفء جسدها الملتصق بي وصوتها يهمس في أذني:

شفاء الحب ثقيلٌ وضُمُّ ورهزٌ تذرف العينان منه
وأخذٌ بالدوائب والقرون وزحفٌ بالبطون على البطون

قم يا سيدي، والله أنت حبيبي وتحبني، فمالك تعرض عني دلالة؟ انتبه من منامك، وانظر إلى النرجس والخضرة، وتمتع ببطني والسرة، وهارشني وناغشني من هذا الوقت إلى بكرة..

حاولت أن أقول شيئًا، ولكنها أخذت شفتي بين شفتيها ودار لسانها في فمي. رشفت رضاها فتملت، ولم أملك مقاومة. أمسكت بيدي وقادتني إلى الخيمة فوجدتها مضاءة بلا مصباح، قبل أن أسأل عن مصدر النور قالت كأنها تقرأ أفكاري:

- هذا نور حبي وضياء عشقي، خذني عندك يا حبيبي، ضمني إلى حضنك وأطفئ ناري..

وكشفت ثوبها إلى نحرها، فبان لها ساقان من المرمر وفوقهما كثيب من البلور ناعم مربرب، وبطن كالعجين الخمران، ونهدان كفحلي الرمان؛ فلم أملك نفسي وجذبتها وعانقتها وأخذت رجلها في وسطي، ثم ركبت المدفع وحررته على القلعة وأطلقته... ولكن كان البرج من الأصل مهدومًا.. ووجدتها درة مثقوبة، وماسة معطوبة، ومهرة لفوارس قبلي مركوبة...

أحسست بغصة في قلبي، ولكنني عزيت نفسي بقولي عندما تجد
الحب الحقيقي فإنه لا يضريك ألا تكون الأول، وإنما يضريك كل الضر إلا
تكون الأخير.. استسلمت لعذوبة عشقها ونار غرامها وصوت غنجها
وتأوهاتنا حتى وصلنا معاً إلى أوج السماء..

رقدنا لاهثين. تبادلنا قبلة وابتسامة مشرقة. قالت:

- الآن فقط بدأت حياتي.. يا روح قلبي.. يا حياتي..
- ولكن كيف كان؟ وأنت قلت لي إنه اختطفك ليلة عرسك، ولم
يمسك قط؟
- لماذا تسمح لهذه الأفكار السود أن تعكر صفو أسعد ليلة في
عمرنا؟ أنت بداية عمري الحقيقي وحياتي الحقيقية وحسب..
- ما دمنا روحاً واحدة في جسدين؛ فلا يصح أن أجهل عنك شيئاً.
كيف؟
- لم تكن أنت أول من عثر بالسرداب المسحور..
- عاودت تقبيلي ووضعت رأسها على كتفي وقالت هامسة:
- انس الماضي بكل ما فيه، واستعد لعشق لم يذق إنسان لحلاوته
مثيلاً..

صدق وعدها فعشنا أياماً يفوق جمالها كل خيال. أذاقتني من
فنون العشق ما لم أكن أتصور له وجوداً. أيام كان يمكن أن تكون أحلى
ذكرياتي لولا ذلك النزناز الذي كان يوسوس لي بين الحين والآخر بأنني
كنت أريد أن أكون الأول والأخير والوحيد، وأني أريد أن أمحو الماضي
محوً، ثم يشتعل غضبي لهيباً متأججاً لعجزي، ثم تدخل عليّ ببسمتها
المشرقة فتبخر أفكاري المشثومة... وأذوب..

عدت وقت الأصيل، فوجدت الخيمة كالعادة مرتبة منمقة، ووجدتها قد صنعت من فرو الدب والأزهار البرية فراشاً جميلاً داعياً. بحثت عنها على حافة الغدير وبين الأشجار فلم أجدها. ناديت اسمها فلم يجبني سوى صدى صوتي. عدت إلى الخيمة فرأيت ورقة على سرير العشق. أمسكتها وقلبي يدق فرقاً:

استمارة الرغبات

«كيف تريد أن تراني الليلة؟»

- من فضلك وكرمك يا سيدي ومولاي ضع علامة (X) بجوار اختيارك:
- أ. شقراء اسكندنافية كالبيض المقلبي في بياضه الناصع وصفاره الفاقع. () .
 - ب. بنت بلد مصرية دلوعة تشبه الملبن في طراوته ولدوته وسكر مذاقه. () .
 - ت. برازيلية من شاطئ «كوباكابانا» بأرداف وافرة على شكل قلب مقلوب. () .
 - ث. امرأة عاملة من مدينة النحاس تخفي أنوثتها المتفجرة في بدلة رمادية وخلف قناع من الحزم والعزم والصرامة. () .
 - ج. سوداء إفريقية سمهرية القوام نافرة النهود متكورة العجيزة. () .
 - ح. قينة من قصر الخلفاء تنشد لك الشعر وتضرب العود ثم ترقص بين يديك عارية إذا تقدم الليل. () .
 - خ. هندية ترتدي الساري عاري البطن وتحفظ عن ظهر قلب كل دروس «الكاماسوترا». () .
 - د. روسية من سهوب سيبيريا بفخذين كأشجار البلوط، ونهدين كجبال الأورال. () .
 - ذ. يابانية مطبوعة خانعة بشعر كالحرير وعينين كسُم الخياط. () .
 - ر. أي تنويع من الصفات المذكورة أعلاه؟ أحلامك أوامر لا تُرد.

قهقهت ضاحكاً من خفة ظلها وسعة خيالها. ناديت عليها مرة أخرى فجاءني صوتها من مكان مجهول:
- لن تراني حتى تحسم أمرك وتختار ما تريد.. وأسرع فالشوق إليك يقتلني..

أمسكت بالقلم وأخذت أفكر فيم أختار. ثم مرقت حية رقطاع في ذهني وبخت سمها في سعادتي. أيمكن أن تكون هذه الاستثمارة فكرة راودتها عفو الخاطر؟ أم أنها لعبة سبق أن لعبتها مرات لا يمكن أن أعرف عددها؟ اقتحمت المראה فمي، وأشرت بالقلم إلى جانب أحد الأسطر كيفما اتفق...

دخلت عليّ الهندية ذات البقعة الحمراء المستديرة بين حاجبيها. رقصت وغنت وخلعت ملابسها قطعة قطعة؛ فغلبت الشهوة أفكاري السوداء، وغيرتي الخائفة، وأخذتها بين ذراعي. بعين الخيال المريض رأيتها تبذل الكنوز ذاتها لغيري. همست باسمي طالبة المزيد فسمعت اسم سواي. أبصرتهم يملأون الخيمة حولنا. رجال بلا وجوه ولا أسماء ولا ملامح، ولكنهم جميعاً قد ارتقوا منها المرتقى ذاتها. كلهم قد سبقني. ولعلها قالت لكل واحد منهم: يا سيدي ويا مولاي ويا حياتي ويا روح قلبي...

دخلت في معركة طاحنة معهم جميعاً في الوقت ذاته. أبارز وأطعن بقوة ضارية في كل اتجاه. أجري وراء أحدهم بسرعة هائلة حتى أردية صريعاً. والثاني أتسلل خلفه بهدوء حتى أقتله. والثالث أمسك عنقه بكفي وأعصره حتى يختنق. وهي تناؤه وتتلوى وتصرخ وجداً وغراماً حتى

تراجعوا كلهم، وقد انشت سيوفهم، والتوت رماحهم؛ فتوقفت عن النزال والطعان؛ وارثمت على ظهري لاهثاً. طبعت على خدي قبلة وقالت:

- كل هذا العشق؟! أتحبني بهذا القدر؟ كيف تمكنت، إذن، من إخفائه طيلة الأيام التي تدلت وتمنعت عليّ فيها؟

اصطنعت ابتسامة وقلت:

- الحمد لله أننا بمفردنا في الغابة، وإلا لكانت فضيحتنا بجلاجل عند الجيران وجيران الجيران من صراخك...

- وهل هذا يقارن بتلك التي وطأها رجلها فنخرت نخرة فرت لها ثمانون من إبل الصدقة لم تتجمع حتى يومنا هذا؟

«من هي تلك التي وطأها رجلها؟ أهي بنت طلحة أم أنت مع واحدٍ منهم؟ كيف أسكت هذه الأصوات اللعينة في رأسي؟»

- لا عليك يا حبيبتي.. كنت أداعبك فقط.. تعالي ننام ونستجمع قوانا لمزيد..

- أمرك يا سيدي ومولاي..

«كم سيدٍ سبقني لسماع هذه الكلمات؟ كم مولى سبقني إلى طلوع القلعة واعتلاء أريكة الحكم؛ فسجدت بين يديه وقبلت الأرض تحت قدميه ومشيت قدامه بالشاش والقماش، وقرعت له الكوسات والطلبخانات، وضججت بالدعاء له والدعاء على سلفه؟ كم مرة تعالت زغاريد نشوتك، وهو يقوم من فوقك ويدق صدره بقبضتيه كغوريلا فرح، وهو يسمع لهائك ويرى عينيك الزائغتين ويمتّع نظره بجسدك العاري يجتر امتنان الشبع؟ كم مرة قلت: «الآن فقط بدأت حياتي.. لم أعرف مثل هذه السعادة من قبل؟»

تعال أيها النوم وأنقذني من رؤاي السوداء القاتلة، أنقذني من إدماني
لها، وعشقي القاتل، وغيرتي السامة، والخناجر التي تستقر في قلبي كلما
أخذتها بين ذراعي... .

بمرور الأيام تناقصت السعادة بالتعود، وترعرعت شياطين الغيرة
بالتساؤلات الحائرة. ازداد شرودي ووجومي وقلت كلماتي، وطالت
فترات صمتي. تأتي فتجلس بجواري، وتمسك بيدي الباردة فأتركها
لها تأدياً للحظات، ثم أسحبها من دون كلام. في يوم من الأيام، بذلت
جهداً المعتاد في إبداء المودة وقابلتها ببرودي المعهود؛ فانفجرت في
بكاء طويل. أخذت أربت عليها بكف محايدة، وأهددها بحضن فاتر
حتى قالت:

- لم أعد أحتمل تباعدك عني.. أنا أحبك من كل قلبي.. وجميلك
دين في عنقي.. وأتفاني راضية في خدمتك ومحاولة إسعادك..
وأنت لم تعد تحبني..

أمسكت قلمًا ورسمت على الورقة شكلاً سريعاً وقلت:
- الدائرة أكمل الأشكال الهندسية. وفي الدائرة - كما في الشكل
المبين أدناه - أقرب نقطتين إلى بعضهما هما في الوقت ذاته
أبعدهما عن بعضهما...



وإن كنت تريدني صدقًا.. فأصدق الكلمات هي أنني أحبك حتى الكره..

وأكرهك حتى الحب..

وأعيش فيك حتى الموت..

وأموت فيك حتى اكتمال الحياة..

- لا تحاول أن تأكل عقلي بكلامك الحلو ومهارتك في اللعب به!
أنا أعرف تمامًا ما يدور في عقلك.. أراه كل يوم مكتوبًا على جبينك وتنطق به من دون كلام عيناك.. لن أستطيع أن أمحو الماضي؛ لأنه ببساطة غير موجود، ولم يكن موجودًا قط.. أنت الحقيقة الوحيدة في حياتي..

- لماذا لم تنتظريني إذن؟

- لأنني كنت أبحث عنك..

- تمنحين لغيري كل ما عندك؛ لأنك كنتِ تبحثين عني؟ أي هراء هذا؟

- هذا ما لا يفهمه إلا من عرف الحب الحقيقي.. وأنت لم تعرف قلبك إلا حب الامتلاك.. لا فارق بينك وبين القمر..

- قطع لسانك!! كيف تجرؤين على مقارنتي به؟

- الفارق الوحيد هو أنه لم يدع أبدًا النبيل ولا الشهامة..

- اخرسي.. كلمة أخرى وسأكسر عظامك..

- ألسنت أنت القائل: « وكلما رأيت أصابع الفجر الوردية تزيح الستار الأسود عن وجه العالم؛ تيقنت أن كل شيء يتكشف في النهاية عن الأكذوبة ذاتها»؟.. انكشفت أكذوبتك قبل طلوع الفجر..

أطفأ الغضب مصباح العقل؛ فقممت نحوها رافعاً يدي مستعداً
للضرب، بل القتل لو استلزم الأمر.. صرخت بشراسة لبؤة جريح:
- لا تمسني وإلا ستندم حيث لا ينفع الندم..

في اللحظة التي صكت فيها يدي خدها؛ وجدت نفسي أطيّر في
الهواء بسرعة خارقة ولحقت بي صرتي المملوءة بملايسي.. وما هي إلا
ثوانٍ أو غمضة عين حتى هويت من حالق وارتطم جسدي بقرقعة عالية
بدكة خشبية في محطة القطارات الرئيسة في مدينة النحاس...

حدوتة كلنا فى الهوا

صحوت من نومي تحت القبة الكبيرة تزينها أبراج الفلك. نظرت إلى النجوم الكهربائية الصغيرة؛ لأقرأ فيها طالعي منتظراً أن تمنحني إحداها عزاءً أو بشرى. جسدي كله يؤمني وعظامي مرصوفة من سقطتي من عنان السماء على الدكة الخشبية الصلبة. جحافل السابلة تسير كالنمل في كل اتجاه. معظمهم يلهثون في جريهم المحموم للحاق بالقطارات حتى لا تفوتهم لحظة واحدة من يوم الاستبعاد الذي ينتظرهم في زنازين الأبراج الزجاجية البراقة. بعد الفترة الطويلة التي قضيتها في الأديرة الهادئة وعلى الشواطئ المهجورة وفي الغابات وسرايب تحت الأرض؛ أصابني الدوار من كثرة الناس وسرعة الحركة. أما الضوضاء فكانت تؤلم طبلة أذني أشد إيلام..

أدركت بعد فترة أن الناس يحملقون في رقدي الغريبة وسط المحطة؛ فقررت القيام والتحرك من مكاني. لم يعد سؤال: (إلى أين؟) يؤرقني أو يشغل لي بال. من المؤكد أنني سأجد مكاناً أستأنف فيه مغامراتي الفاشلة وخيالاتي المتتابعة. ولكن هذه المرة تختلف؛ سأكابد آلام الوجد وأحزان الشوق ووخزات الندم على حماقتي التي لا دواء لها، والتي أدت بي

إلى إضاعة الحب الحقيقي الوحيد الذي عرفته في حياتي. ولكن من يدري؟ ربما كان اللطيف بالعباد قد أعطاني هذا الألم الجديد؛ كوسيلة مثلى لتخدير الألم القديم المقيم...

مددت يدي تحت رأسي فلم أجد شيئاً. قمت مفزوعاً وقلبت الدنيا تحت الدكة ذات اليمين وذات اليسار وفي كل مكان من دون جدوى. اختفت صرتي! في داهية القميصين المهلهلين والغيارات القذرة، ولكن الأنوبة التي تحوي روحي كانت بداخلها!! بماذا سيستفيد اللص الحقير من سرقة وعاء زجاجي قديم يضم شيئاً بلا قيمة لأي إنسان سواي؟ تجمع الناس حولي وهم يسمعونني أصرخ:

- لا.. لا.. لا.. هذه القشة قصمت ظهري.. ماذا أفعل الآن؟

تقدمت مني شابة حنونة الوجه وقالت:

- ما حدث قصم ظهورنا جميعاً.. لا داعي أن تتصور أنك وحدك في الإحساس بالخسارة والضياع وفقدان البوصلة..
- قلبي انكسر وروحي ضاعت!! سرقت مني في تلك اللحظة المشثومة.. وحتى لو وجدوا الآن علاجاً فلن يجدوا ما يزرعونه في جسدي المشوه..
- هول الصدمة جرح قلوبنا ورجّ أرواحنا جميعاً.. لكن علينا أن نستجمع قوانا، ونعود للوقوف على أقدامنا مهما تكن صعوبة الموقف..

- يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً..

- بماذا يفيد موتك أو موت أي منا؟ يجب أن نصمد ونقاوم ونستعيد البهجة التي سرقت منا.. تعال معي إلى مركز علاج الصدمات؛

- لكي يساعدك أحد أطبائه المتخصصين..
- قضي الأمر ولم يعد هناك أحد يستطيع مساعدتي.. ضاعت روحي ومعها ضاع كل شيء إلى الأبد..
- لم يضع شيء لا نستطيع تعويضه.. تعال معي..

أفلت يدي من قبضتها وجريت وأنا أنوح بأعلى صوت.. فقدت الحب والروح والأمل الواهي، فماذا بقى لي؟ ولماذا لا أضع حدًا لهذه الحدوة السخيفة بقراري وبيدي من دون انتظار لهازم اللذات ومفرق الجماعات؟

عندما خرجت إلى الطريق؛ تطيرت من لون السماء الرمادي الكالح وظلمتها الصباحية. فوجئت بقطعان من سيارات المطافئ والشرطة والإسعاف تنطلق في كل اتجاه وهي تعوي وتدور أنوارها الملونة. وفوجئت أيضًا بأعداد لا حصر لها من رايات مدينة النحاس ترفرف في كل ركن وعلى كل ناصية، وتلتصق بمؤخرات السيارات والفتيات وصدور الرجال وواجهات المحلات وجذوع الأشجار وموائد المطاعم ومحطات الأتوبيس، رايات بلا عدد تسد الأفق، رايات فيها نجوم السماء وزرقة البحر وصفاء الحليب.. وأنهار الدم..

كان قسم الشرطة - خلافاً للمألوف - خاوياً إلا من ضابط وحيد يشرب القهوة ويمضغ لبانة. سألني بفضافة العسس المعهودة:

- ماذا تريد؟

- جئت أبلغ عن حادث سرقة..
- في منزلك أم في الطريق؟
- في محطة القطارات الرئيسة.. كنت نائمًا على الدكة الخشبية وجاء أحدهم وسرق صرتي..

تأمل منظري غير المهندم وثيابي الرثة ولحيتي النابتة، ثم سأل بضجر وازدراء لم يبدل في إخفائهما جهداً:

- وهل كان فيها شيء غالى الثمن أو كبير القيمة؟
- نعم يا سيدي الضابط.. كانت فيها روجي الضائعة في وعاء زجاجي صغير محكم الإغلاق يشبه أنوبة التجارب.. عادة أحتفظ بها في جيبي قرب القلب.. ولكنها لما نفذ صبرها من غيرتي المجنونة، واستشاطت غضبا من كلماتي الجارحة، وبرودي المهين، شاطتني إلى أعالي السماء، وبعدها بلحظات لحقت بي الصرة.. وقتها أمسكتني رياح الشرق من قفائي، وقذفتني كالكرة إلى رياح الغرب، وظلنا تتبادلاني كاللعبة فيما بينهما، وطبعًا لم يكن عندي من حضور الذهن ما يدفعني لحل الصرة ونقل الوعاء الثمين منها إلى جيبي.. ولما سقطت على الدكة الخشبية لم أفكر في شيء سوى أنني أضعت حبيبة القلب، ولم أشعر بشيء إلا الندم القاتل الذي لا ينفع ببصلة؛ حتى أتى النوم فخلصني من آلامي، ولكنني سهوت عن نقلها إلى مكان أمين.. وبعدها أتى اللص الأثيم، وكان ما كان وضاع مني كل شيء..

أدام الضابط النظر إليَّ للحظات، ثم قال بنبرة ودود تختلف كل الاختلاف عن نبرته السابقة:

- لا عاش ولا كان من يؤذيك أو يضرّك أو يدوس لك على طرف.. أنا والله حزين على كل ما جرى لك، وأفهم تمامًا صعوبة الوضع. أنت مثلنا جميعًا بحاجة إلى قدر من الراحة بعد ما جرى؛ وبالتأكيد ستتحسن حالتك.. تفضل بالجلوس وسأتيك بفنجان من القهوة تشربه وتروق بالك ريشما أجري بعض الاتصالات بكبار المتخصصين الذين سيتابعون الموضوع عن كثب، ويأتون له بحل يرضيك ويسعد له قلبك..

- أرى من نظرة عينيك أنك تظن بي الجنون.. لك عذرك؛ لأنني أعرف أن حكايتي عجيبة يصعب تصديقها.. ولكنني لو حكيت لك عشر معشار الأحوال التي مررت بها في محاولتي العثور على ترياق يعيد روحي إلى مكانها؛ لعجبت كيف لم أفقد عقلي حتى الآن!!

- اسمع يا صديقي.. كلنا نشعر بفداحة الكارثة ونعاني من الدوار بسببها.. لكن هناك حلولًا كثيرة متاحة للخروج من هذه الأزمة.. الملك سيخاطب الأمة الليلة، ومن المؤكد أنه سيطرح برنامجًا متكاملًا لمواجهة المأساة، والتغلب عليها والانتصار على من تسببوا فيها..

قاطعته وأنا أضرب كفاً بكف:

- يا عجبًا! كلما حدثت شخصًا قال لي: كلنا في الهوا سوا، وكلنا اضطررنا، وكلنا حزاني بسبب الكارثة.. والآن تقول لي إن صاحب الجلالة ثبت الله عرشه، وأطال عمره، سيخاطب الأمة بشأن ما جرى.. كيف عرفتم ولم تمر على الأمر إلا ساعات قليلة؟ هل طارت وكالات الأنباء بالخبر وطبعته الصحف في صفحتها

- الأولى، ونشرته ابنة جوجلين في كل ملليمتر من شبكة العنكبوت المحيطة بالكوكب؟ ثم لماذا تهتز عمد مدينة النحاس لسرقة روحي؟ ألم تكن قوانينها هي التي أجازت استئصالها؟
- روحك لا تهتم ولا تشغل أحداً.. ألا تدري بما جرى؟
 - قل لي.. نورني.. بدد جهلي..
 - ألا تدري أن المدينة قد هوجمت؟ ألم تسمع بما فعلته الطير الأبايل بالأبراج الشاهقة التي تقوم على أساسات من ذهب خالص، وتنطح بقرونها سحب السماء؟

وانطلق يحكي لي حكاية عجيبة عن قوم وصفهم بأنهم سود القلوب يحقدون على مدينة النحاس، ويغارون من ثرائها وازدهارها وقوتها وحريتها، وينفثون عليها سعادة الإنسان واحترام حقوقه فيها، أتوا من فياف بعيدة يركبون طيور الرخ المتنكرة في هيئة طائرات ركاب مدنية. روى لي كيف قادوا الطيور المعدنية الهائلة بسرعة تقارب سرعة الصوت (أربعة ماخ تحديداً) حتى ارتطمت بقمة البرجين؛ فارتجت الجدران واشتعلت النيران، وما هي إلا دقائق حتى تهاوى المنيان، وتحولت خيلاؤهما وثراؤهما وتحكمهما في مقدرات الدنيا إلى أكوام من الأنقاض المتراكمة، والأحجار المكسرة، وأعمدة الحديد المصهور المتلوي تدفن تحتها آلافاً من الأبرياء الذين لم يعرفوا بأي ذنب قتلوا. أصغيت إليه بذهول وهو يؤكد لي أن الخوف قد أصبح منذ تلك اللحظة هو سلطان المدينة المهيمن على مقدراتها، وأن الثأر قد غدا شغلها الشاغل وهمها الأوحد..

تركني وذهب بحجة إحضار القهوة التي وعدني بها، لكنني كنت متأكدًا أنه سيتصل ببيمارستان المجانين؛ حتى يأتوا ويخلصوه مني محبوسًا في القميص الكتافي، فتسللت بخفة وحذر اللص خارجًا من القسم، والأعاصير تعصف بعقلي محاولاً أن أتابع سرعة الأحداث الرهيبة، وأن أفهم القصة الغريبة التي رواها لي، وكيف حدث ما حدث لمدينة بهذه المنعة والجبروت..

عند خروجي من القسم لم تكن أمامي اختيارات كثيرة. الحقيقة لم يكن عندي إلا اختيار واحد؛ فشددت الرحال إلى الحانة التي التقينا فيها من سنوات. كانت شديدة الزحام على غير العادة. أناس كثيرون يشغلون كل مقاعدها، ويزعقون بأعلى صوت، ويضحكون بهيستيريا خالية من السعادة، ويأكلون بنهم مخيف، ويشربون من الخمر بحارًا ومحيطات، وفي الأركان وتحت الموائد رأيت رجالًا ونساءً يتطارحون الغرام من دون أدنى اهتمام بالأعين المحملقة فيهم..

دنوت من صاحب الحانة وحييته؛ فرد تحيتي بفطور وكأنني لم أختف من حياته وحانته لسنوات طويلة. أشرت إلى حالة الخبل السائدة حولنا وسألته:

- ما هذا؟ ما الذي يحدث؟
- ألم تسمع عن حفل مدينة «بومبي» بعد انفجار بركان «فيزوف»؟
- عندما يطل الخطر برأسه ينهل الناس متعة الحياة حتى آخر قطرة؛ تحسبًا لما ستأتي به الأيام..
- لا أفهم شيئًا...

- وحياتك لا أحد يفهم أي شيء.. انقلبت الدنيا؛ واختلطت كل الأمور، وأصبح الشيء وضده يستويان..

مرة ثانية؟ أهذا قدرى؟ أن أعيش في مكان تأتيه الطائرات عند انبلاج الصبح؛ فينقلب حاله؛ ولا يعود أحد فيه يعرف أو يفهم شيئاً؟
أخرجني من أفكاري صوت الساقى وهو يزقق:
- صمتاً.. لقد بدأ حديثه..

على شاشة التلفزيون، رأينا وجه الملك حزيناً وغاضباً، ويتقلص تقلصات بهلوانية مضحكة وهو يضغط على الكلمات متوعداً بالويل والثبور وعظائم الأمور. سمعت صوته الثائر يقول: وحق طرطوري لأعاقبن السماء التي سمحت للطائرات بالتحليق في أجوائها، ولأسحبن الجنسية من سوبرمان الخائن الذي لم يأت لحماية المبنيين من الانهيار، ولأثارتن من علم الديناميكا الهوائية وكل من قاموا بتدريسه فهو أس البلاء، أما الأعراس في بلادهم الهمجية فسأقصفها بصواريخ ذات دقة جراحية؛ حتى لا تحبل نساؤهم، ولا يلدن مجرمين إرهابيين يأتون لمهاجمتنا في عقر دارنا. لقد حدثني الله ليلة أمس، وأمرني بحرق الأخضر واليابس لو لم يأت الناس جميعاً للوقوف بجوارنا في معركتنا معهم..

بإصبع يرتجف غضباً؛ وجه كلماته مملجة إلى الإنس والجن والدواب والهوام والوحش والطيور قائلاً:

- الاختيار واضح وضوح الشمس.. نحن الحق والخير والجمال والحرية والسعادة.. وهم الباطل والشر والقبح والعبودية

والتعاسة.. أنتم إما معنا وإما مع المجرمين.. إن كنتم معنا فلکم
الأمان، وإن اخترتم الانحياز لصفهم فقد حق عليكم الغضب
والذلة وعذاب يوم عظيم..

ضجت الحانة بالتصفیق والهتاف بعد انتهاء خطابه:

— الثأر.. الثأر..

— وقعة أبيهم سوداء..

— سيدفعون الثمن..

— لو كانوا في جُحر ضبّ فسيخرجهم ونسك بهم ونزقهم
إربًا..

أطلت النظر حولي ودققت في عيون الآخرين، وأدركت أنني - كما
قالت لي المتطوعة الشابة في محطة القطار - لست وحدي. رأيت في
نظراتهم الخواء البارد ذاته الذي أرعبني عندما رأيت عيني لأول مرة بعد
استئصال روحي...

خلافًا للمتوقع، لم أشعر بأي ارتياح.. كيف لعموم البلاء أن يخفف
ألم المريض؟ وكيف لوقوع جارك فريسة للوباء أن يعزيك عن غرس الموت
أنياه في عنقك؟

حدوتة العشق المميت ونهاية الحواديت

قام من مقعده وبحركة مهذار انتزع الهراوة الغليظة من يدي، وقال بابتسامة ينذر أن يراها المرء على وجهه الحزين:

— ألم أقل إنك لن تحتاجها؟ أيام بطولها مرت، وأنا أحكي لك ما مر بي من أعاجيب وأهوال، وأنت ممسكٌ بها وكأنها خرطوم الأكسجين الذي يتدلى تلقائياً من سقف الطائرة في لحظة انخفاض الضغط بشكل غير متوقع وغير محتمل ولا مرجح.. فهل ندت مني طوال ذلك الوقت أدنى حركة تنبئ بغدر أو تنم عن خيانة؟

رددت محرجاً:

— لا.. لا طبعاً.. ولكن الاحتياط واجب..
— تعال نأكل لقمة ونسمع الموسيقى.. طال بنا الحديث أكثر مما توقعت، ولعلك الآن مجهد وتعبان وواقع من الجوع وتلعن أبا خاش اليوم الذي عرفتنني فيه، أو لبيت فيه دعوتي للقاء ثان..
— حاشا لله..

— ادخل فاستحم وأرخ عضلاتك المجهدة.. وتعال لتجد المائدة

ممدودة كايوان كسرى وخوان هرقل..

خرجت من الحمام بفوطة ملفوفة حول رأسي، ووجدت أمامي في ركن حجرة الجلوس مائدة عامرة تصطف عليها الأطباق متزاحمة. البصل الأخضر يتجاور مع الفجل بخده الأحمر وقلبه ناصع البياض. خيار مخلل ثخين بطعم ورائحة الشبت. سمك مملح يشبه الفسيخ من دون رائحته المفزعة. قطع من خبز الحنطة البني متوجة بسواد الكافيار اللامع البراق. شرائح البنجر بحمرتها المتوهجة تحتضن دوائر البصل البيضاء. قطع من السالمون المدخن بلونه الوردي المبهج مطعونة في قلبها بأعواد السواك. سلاطة من الجزر والبطاطس تقوح منها رائحة الكرفس، وبجوارها طبق من الكرنب الغارق في الخل. كرات من اللحم المفروم تسبح في صلصة الطماطم. جرى ريقى متلهفاً لالتهام الطعام، وبدت في عيوني حيرتي فقال:

- هذه يا سيدي وليمة روسية.. عسى أن تنال إعجابك..
- وكيف تعلمت إعداد الطعام الروسي بهذا الحذق يابن الرمل والصحراء؟
- من يعيش في مدينة النحاس؛ يتعلم كل شيء لو كانت عنده الرغبة في التعلم.. تفضل.. كُلْ وأملأ بطنك ولا تستح.. أين توقفنا؟ آه.. عند عودتي منفيًا إلى المدينة التي أصبحت مثلي ومثل بستان القزم في السرداب المسحور بلا روح.. عندما اكتشفت أنها مثل شاطئ الأشعار السماوية كانت وهمًا لا وجود لها إلا في خيالي، وتوقي الممض إلى السعادة حتى وإن كانت كذبة.. على فكرة.. لا يجب أن يفوتك هذا الطبق فهو المفضل عندي.. اسمه «الرنجة تلبس معطفها» وتخفي في طبقات المايونيز والبصل والكرنب حتى لا تتضح لها نكهة ولا شخصية.. كل يا صديقي بألف

هناة.. الباقي أنت تعرفه وسمعته من خمار حانتنا الشهيرة
لما ذهبت إليه؛ باحثاً عني، وحكا لك عن فضائحي والمشاكل
التي تسببت فيها وأنا أعب نبیذه المغشوش باهظ الثمن.. تسمع
موسيقى؟

بعناية كبيرة أخرج قرصاً مدبجاً ووضعه في الجهاز. طلع منه صوت
يغني بشجن -يكاد أن يكون عربياً- على أنغام جيتار واحد:
- هذه كلمات شاعر من بلاد الأندلس.. يقول:

لا شيء يداوي جراحي
لا حضورك ولا غيابك
لأن حضورك يقتلني
ولأنني في غيابك.. أموت..

بعد عودتي الإجبارية إلى مدينة النحاس قابلتها، واستعدت قصة
حبي لها التي بدأت وأنا في رحم أمي.. حبي ميراث مثل لون الشعر
وطول القامة لا سيطرة لأحد عليه.. منذ لقائنا الأول في بداية الشباب
حتى رجوعي لحضنها مهزوماً في مدينة النحاس، وأنا أدرك أنها ستظل
معي دوماً.. لا تكتمل لي سعادة من دونها، ولا يخف لي حزن بغيرها..
بعد ليالي العشق التي لا أفرض فيها حدوداً؛ أذوق هناة بغير مثيل..
ثم أصحو في الصباح مضطجع الجسد، مستنزف الطاقة، منسوف الرأس
من الصداغ، فأقسم أن يكون ذاك آخر اللقاءات وألا أقربها بعد ذلك
اليوم أبداً.. ثم أراها فأرتمي في حضنها؛ عارفاً أنها جرحي ودوائي،
وأن لا علاج لي منها سواها.. أعود فأغرق فيها مدرّكاً أنها تشفي قلبي

المثقوب، وروحي المختفية بكواء الجوف واحتراق الكبد.. إن غابت
مِتُّ شوقاً إليها.. وإن حضرت قتلتنى..

هي عصير الشمس..

وروح الرياح..

فضة مسالة..

سم الأفاعي..

شفاه الزهور..

ضجيج الصمت..

يلسم شغاف القلب..

وميسم كي النار..

ياقوت معصور..

وذهب مصهور..

ملح الدموع..

وخز إبر النحل..

طعم السنين وطعم البعث..

وطعم الموت..

صمت للحظة ثم استأنف:

-- إن كنت قد سددت جوعك ورويت ظمأك؛ فاسمح لي أن ألم
مائدتني وأرتب حجرتي، ثم أغسل لك قدمك، وأقبل لك يدك،
وأشكر لك فضلك وأستودعك الحي الذي لا يموت..

خفق قلبي خفقة جارحة حتى كاد أن ينط من صدري. بأعجوبة
خارقة تستعصي على التفسير، انحدرت من عيني لؤلؤتان لامعتان

وقلت بأسى:

- هو الفراق إلى غير لقاء إذن؟
- والله لقد حيرتني واحتار دليلي معك يا ابن المجانين!! لا تفوتك فرصة لتقول لي في وجهي ومن دون حياء إنك لا تطيقني بغضاً.. والآن إذ أودعك لأريحك من صحبتي الثقيلة على قلبك، تبكي وتولول كالنسوان حزناً على فراقى!! لماذا لا ترسو لك على بر وتحدد بالضبط ما تريد؟
- أما أنني فلا أطيقك؛ فهذا أمر مفروغ منه وحق لا مرأى فيه.. كل مرة اقتحمت فيها حياتي ارتبكت أموري، واختلطت مواعيدي، ونكثت بوعودي، وخربت علاقاتي بكل البشر.. لكنني أحببت الحواديت وسعدت بسماعها.. وأعتقد أن ما يزال عندك الكثير منها، وأريد حقاً أن أدونها لك كما كانت الحال في أول مرة.. أرجوك.. لا تسمح لمعشوقتك بإنهاء الحواديت قبل الأوان..

مد يده إلى زجاجة الفودكا المثلجة التي تقف وسط ذلك المهرجان من الألوان والطعوم والروائح الشهية متباهية برأسها المرفوع وجيدها العاقل من كل زينة إلا لآلى المياه متناهية الصغر، نزلت سميكة بطيئة كقطيفة سائلة وهو يصبها في كأسٍ صغيرة كلعب الأطفال، شربه في جرعة واحدة ثم قال:

- أعدك أن أبذل جهدي..

«تمت»^(١)

القاهرة، يناير ٢٠٠٨

نيويورك يناير - مارس ٢٠٠٨

حواديت «الآخر»

قفز على كتفي وأطبق بساقين من حديد على جنبيّ وأفشى لي
السر:

- لقد عشت مغامرات ومخاطرات تشيب لهولها الولدان وذلك في
مدينة النحاس والله وحده يعلم كيف خرجت منها حيّاً، رأيت
مالا عينٌ رأّت ولا أذنٌ سمعت، وأريد الآن أن أكتب ما رأيت، غير
أنّي تعبان منهمك ووقع اختياري عليك، سأركب كتفك وأستعير
مخك لثمانية أيام وسبع ليالي، سأخبرك بما جرى لي وأنت
ستكتبه..

ويا سادة يا كرام مرت أيام بلياليها وهو راكب كتفيّ يملي عليّ
ويأمرني بالكتابة ولا يتيح لي راحة. وهذا يا سادتي ما حكاة
لي الآخر وهذه حواديته أنقلها إليكم على مسئوليته الكاملة وحده،
فأنا لا ذهبت إلى مدينة النحاس ولا رأيت ولا سمعت، وما أنا إلا
رسول وما على الرسول إلا البلاغ..

